دولة فلسطين

دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد

صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

رئيس مجلس الإفتاء الأعلى

الجزء السادس عشر

القدس

1445هـ - 2024م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس

1445هـ - 2024م

إعداد

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة

الشيخ إبراهيم عوض الله / نائب المفتي العام

مفتي محافظة رام الله والبيرة

فريق العمل

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
تصميم	يوسف تيسير
تدقيق لغوي	هالة عقل و إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران و هبة طقاطقة وموسى أبو صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فدار الإفتاء الفلسطينية تنبري لنشر تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وسنة رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، ويسرها أن تهدي لقرائها الأعزاء الجزء السادس عشر من سلسلة: كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض ما تيسر من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، عمادها بساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويضم هذا الإصدار سبعة وأربعين مقالاً، سبق نشرها في زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ضمن صفحة جريدة القدس الدينية التي تنشر كل يوم جمعة، وشملت هذه المقالات موضوعات عديدة، منها: عقيدة، وعبادات، وسيرة وشمائل، وزهد ورقائق، وأخلاق وقيم.

وتأسياً بهدي الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)(*)، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الطيب، من موظفي دار الإفتاء الفلسطينية، وصحيفة القدس، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عز وجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

وأخيراً نؤكد على أن ما أصبنا به في هذا الإصدار وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وما أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

1445هـ - 2024م

* سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني.

الفصل الأول

عقيدة

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

.1	وقوله: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ - الحلقة الأولى	6
.2	وقوله حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ - الحلقة الثانية	10
.3	وقوله حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ -الحلقة الثالثة والأخيرة	14
.4	وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم" - الحلقة الأولى	18
.5	وقوله:»الله مولانا ولا مولى لهم» - الحلقة الثانية	21
.6	وقوله: «الله مولانا ولا مولى لهم» - الحلقة الثالثة	25
.7	وقوله: «الله مولانا ولا مولى لهم - الحلقة الرابعة والأخيرة	29

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" الحلقة الأولى

عـن ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهـما، قـال: (حَسْـبُنَا اللـه وَنِعْـمَ الْوَكِيـلُ، قَالَهَـا إِبْرَاهِيـمُ، عليـه السَّـلَام حـين ألقـي في النَّـارِ، وَقَالَهَـا مُحَمَّـدٌ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، حـين قالـوا: {إِنَّ النـاس قـد جَمَعُـوا لَكُـمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَزَادَهُـمْ إِيمَانًـا وَقَالُـوا حَسْـبُنَا اللـه وَنِعْـمَ الْوَكِيـلُ})[1].

يتعلـق هـذا الحديـث الشريـف الصحيـح بأمـر إيمـاني، ينفـح بالأمـل للذيـن يتمسـكون بالحـق، ولا يفرطـون، ولا يبدلـون، مهـما اشـتدَّ الأذى الـذي يعـترض سـبيلهم، ويلحـق بهـم؛ لأنهـم يوقنـون أنهـم ينتـصرون للـه، وهـو ناصرهـم، مصداقـاً لوعـده سـبحانه: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِن تَنـصُرُوا اللَّـهَ يَنصُرْكُـمْ وَيُثَبِّـتْ أَقْدَامَكُـمْ}[2]

معنى حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ:

قـال ابـن الأنبـاري: {حَسْـبُنَا اللَّـهُ} أي كافينـا اللـه، و{الْوَكِيـلُ} فيـه أقـوال، أحدها: أنـه الكفيل، والثـاني قـول الفـراء: أنـه الـكافي، ويسـتدل الـرازي عـلى صحـة هـذا القـول أن {نِعْـمَ} سـبيلها أن يكـون الـذي بعدهـا موافقـاً للـذي قبلهـا، تقـول: رازقنـا اللـه، ونعـم الـرازق، وخالقنـا اللـه، ونعـم الخالـق، فكـذا هاهنـا تقديـر الآيـة: يكفينـا اللـه، ونعـم الـكافي.

والقـول الثالـث: الوكيـل فعيـل بمعنـى مفعـول، وهـو الموكـول إليـه، والـكافي والكفيـل يجـوز أن يُسـمى وكيـلاً؛ لأن الـكافي يكـون الأمـر موكـولاً إليـه، وكـذا الكفيـل يكـون الأمـر موكـولاً إليـه.[3]

1. صحيـح البخـاري، كتـاب تفسـير القـرآن، سـورة آل عمـران، بـاب {إِنَّ النَّـاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُـمْ فَاخْشَـوْهُمْ} (آل عمـران: 173).
2. محمد: 7.
3. التفسير الكبير، 9 /82.

الشدائد تستدعي تفعيل اليقين بحَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ:

يبين ابن عباس، رضي الله عنهما، في حديثه المذكور آنفاً، أن إبراهيم، عليه السلام، قال: {حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} في ساعة واجهته فيها شدة عظيمة، وذلك لما ألقى به أعداؤه في النار ليحرقوه بها، فعبر إبراهيم، عليه السلام، بهذا القول عن عمق إيمانه ويقينه بأن الله كافيه شر أعدائه، وكان الرد الرباني عظيماً، فأنجى خليله إبراهيم من النار بفعل خارق للعادة، إذ أمر سبحانه النار أن تتحول خاصية الإحراق فيها إلى النقيض، فصارت برداً وسلاماً على إبراهيم، عليه السلام، وعن هذا يقول جل شأنه في قرآنه الكريم: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[1]

وفي حديث صحيح عن ابن عَبَّاسٍ، قال: (كان آخِر قَوْلِ إبراهيم حين أُلْقِيَ في النَّارِ: حَسْبِيَ الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)[2]

ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، لجأ لقول: {حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ} لما اشتد الكيد ضده وضد دينه وأصحابه، وأرجف المخذلون بأن الأعداء يحشدون للانقضاض على المسلمين، فسأل عليه الصلاة والسلام، ربه أن يكفيه شرهم، وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الحادثة، فقال عز وجل: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[3]

1. الأنبياء: 69.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} (آل عمران: 173).
3. آل عمران: 173 - 176.

نصر المتوكلين على الله:

من الروايات المخبرة عن مناسبة الحادثة التي قَالَ فيها النَّاسُ للمسلمين: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ما ذكره ابن عباس، قال: إن الله قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان منه، فرجع إلى مكة، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب، وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة، فينزلون ببدر الصغرى، وأنهم قدموا بعد وقعة أحد، وكان أصاب المؤمنين القرح، واشتكوا ذلك، فندب النبي، صلى الله عليه وسلم، الناس لينطلقوا معه، فجاء الشيطان فخوف أولياءه، فقال: إن الناس قد جمعوا لكم، فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد، فانتدب معه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة ابن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح، في سبعين رجلاً، فساروا في طلب أبي سفيان، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء، فأنزل الله: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ...الآية}[1][2]

والآية المشار إليها في ختام هذا الخبر هي قوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[3]، وعن مناسبتها تخبر أم المؤمنين عَائِشَة، رضي الله عنها، ابن أختها عُرْوَةَ بن الزبير، فتقول: (يا ابن أُخْتِي، كان أَبَوَاكَ منهم؛ الزُّبَيْرُ وأبو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ما أَصَابَ يوم أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عنه المُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قال: من يَذْهَبُ في إِثْرِهِمْ؟ فَانْتَدَبَ منهم سَبْعُونَ رَجُلًا، قال: كان فِيهِمْ أبو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ)[4]

1. آل عمران: 173.
2. ابن لباب، النقول، 1 /60.
3. آل عمران: 173.
4. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} (آل عمران: 172).

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، لما بلغته الأراجيف بشأن تجهيز جموع الكفار للانقضاض على المدينة بعد أحد، توجه إلى الله طالباً العون، من خلال قوله المعبر عن يقينه وإيمانه بأن الله كافيه، فكفاه الله شرهم، ونصره عليهم، دون أن يحدث قتال بين الطرفين على الأرض، فكان الرعب سلاحاً سلطه الله بقدرته على أعداء الإسلام، فهزمهم به، وأبطل مفعول أراجيفهم، وكفى الله المؤمنين القتال.

فهذه وقفة عند قول الله: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} المثبت في الذكر الحكيم، شملت بيان معناه، والإشارة إلى بعض الشدائد التي تستدعي استذكاره بيقين، سائلين الله العلي القدير أن ييسر الوقوف عند مزيد من القضايا ذات الصلة بهذا القول الإيماني، الذي استحضر ذكره خليل الله إبراهيم، عليه السلام، ونبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" الحلقة الثانية

عن ابن عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).(*)

أشارت الحلقة السابقة إلى معنى حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، والراجح أنه يعني يكفينا الله، ونعم الكافي، وبينت أن الشدائد تستدعي تفعيل اليقين بحَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وأن الله ينصر المتوكلين عليه سبحانه، فأنجى الله خليله إبراهيم، عليه السلام، من النار بفعل خارق للعادة، إذ أمر سبحانه النار أن تتحول خاصية الإحراق فيها إلى النقيض، فصارت برداً وسلاماً عليه، ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، لجأ لقول: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} لما اشتد الكيد ضده وضد دينه وأصحابه، وأرجف المخذلون بأن الأعداء يحشدون للانقضاض على المسلمين، فسأل عليه الصلاة والسلام، ربه أن يكفيه شرهم، فكفاه.

المتوكلون على الله يدخلون الجنة بغير حساب:

حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، المثبت نصه أعلاه يخبر فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن دخول أصناف من الناس الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون، قال أبو الحسن القابسي: يريد بالاسترقاء الذي كانوا يسترقون به في الجاهلية، وأما الاسترقاء بكتاب الله، فقد فعله صلى الله عليه وسلم، وأمر به، وليس بمخرج عن التوكل، وقوله: (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها، كما كانت عادتهم قبل الإسلام، والطيرة ما يكون في الشر، والفأل ما يكون في الخير، وكان صلى الله عليه

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه} (الطلاق: 3).

وسلم، يحب الفأل.

والتوكل: (وعلى ربهم يتوكلون) تفويض الأمر إلى الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب.[1]

ومنزلة الذين على ربهم يتوكلون لا على غيره، يبلغون بها درجة الخواص، المعرضين عن الأسباب، الواقفين مع المسبب.[2]

وبالنسبة إلى العدد المذكور، قيل: هم أكثر من هذا العدد، والله أعلم بذلك، مع احتمال أن يراد بالسبعين الكثير، وقال بعضهم: إن العدد المذكور على ظاهره.[3]

سبق بها عكاشة:

حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، سالف الذكر، ورد عنه برواية صحيحة أخرى أخرجها الإمام البخاري في صحيحه، وتضمنت تفاصيل وإضافات أخرى، فعنه قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فأخذ النبي يمُرُّ معه الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يمُرُّ معه النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يمُرُّ معه الْعَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يمُرُّ معه الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فإذا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قلت: يا جِبْرِيلُ، هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قال: لَا، وَلَكِن انْظُرْ إلى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ، فإذا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قال: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عليهم، ولا عَذَابَ. قلت: وَلِمَ؟ قال: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ إليه عُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ، فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: اللهم اجْعَلْهُ منهم. ثُمَّ قام إليه رَجُلٌ آخَرُ، قال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ).[4]

قوله: (ولا يكتوون) يعني لا يعتقدون أن الشفاء من الكي، كما كان عليه اعتقاد أهل

1. عمدة القاري: 21 /245.
2. التيسير بشرح الجامع الصغير: 2 /54.
3. عمدة القاري: 23 /117.
4. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب.

الجاهليـة.

وقولـه: (سـبقك بهـا عكاشـة) أي في الفضـل إلى منزلـة أصحـاب هـذه الأوصـاف الأربعـة، وقيـل: يحتمـل أن يكـون سـبقك عكاشـة بوحـي أنـه يجـاب فيـه، ولم يحصـل ذلـك للآخـر.[1]

من يتوكل على الله فهو حسبه:

يُطمـئن اللـه المتوكلـين عليـه سـبحانه حـق التـوكل، بأنـه يكفيهـم، ويحقـق لهـم الخـير، ويـصرف عنهـم الـشر، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل: {وَمَـن يَتَّـقِ اللَّـهَ يَجْعَـل لَّـهُ مَخْرَجـاً* وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُ* وَمَـن يَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِـغُ أَمْـرِهِ قَـدْ جَعَـلَ اللَّـهُ لِـكُلِّ شَيْءٍ قَـدْراً}.[2]

معنـى قولـه تعـالى: {ومـن يتـوكل عـلى اللـه فهـو حسـبه} أي كافيـه، حيـث لا يحتـاج معـه إلى غـيره، وقولـه: {إن اللـه بالـغ أمـره} أي يبلـغ مـا يريـد، ولا يعجـزه شيء، هـذا حـض عـلى التـوكل، وتأكيـد لـه؛ لأن العبـد إذا تحقـق أن الأمـور كلهـا بيـد اللـه، تـوكل عليـه وحـده، ولم يعـول عـلى سـواه، ومعنـى {قـدراً} في قولـه سـبحانه: {قـد جعـل اللـه لـكل شيء قـدراً} أي مقـداراً معلومـاً، ووقتـاً محـدوداً.[3]

ويسـتند الـرازي إلى قولـه سـبحانه: {وَمَـن يَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ} لقولـه: واعلـم أن مـن تـوكل عـلى اللـه في كل المهـمات، كفـاه اللـه تعـالى كل الملـمات.[4]

جـاء في المحـرر الوجيـز في تفسـير الكتـاب العزيـز، أن هـذه الآيـات كلهـا عظـة للنـاس جميعهـم، والحسـب الـكافي المـرضي، وقـال ابـن مسـعود: هـذه أكـثر الآيـات حضـاً عـلى التفويـض، وروي أن رجـلاً قـال لعمـر: ولنـي مـما ولاك اللـه، فقـال لـه عمـر: أتقـرأ القـرآن؟ قـال: لا. قـال: فأنـا لا أولي مـن لا يقـرأ القـرآن. فتعلـم الرجـل رجـاء الولايـة، فلـما حفـظ كثـيراً مـن

1. عمدة القاري: 21 /245.
2. الطلاق: 2 - 3.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/127.
4. التفسير الكبير: 17/117.

القرآن تخلف عن عمر، فلقيه يوماً، فقال له عمر: ما أبطأ بك؟ قال له: تعلمت القرآن فأغناني الله تعالى عن عمر وعن بابه، ثم قرأ هذه الآيات من هذه السورة. وقوله تعالى: {إن الله بالغ أمره} بيان وحض على التوكل، أي لا بد من نفوذ أمر الله، توكلت أيها المرء، أو لم تتوكل، قاله مسروق، فإن توكلت كفاك، وتعجلت الراحة والبركة، وإن لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك، وأمره في الوجهين نافذ.(*)

فهذه وقفة أخرى عند قول الله: {حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} المثبت في الذكر الحكيم، سائلين الله العلي القدير أن ييسر الوقوف عند مزيد من القضايا ذات الصلة بهذا القول الإيماني، الذي استحضر ذكره خليل الله إبراهيم، عليه السلام، ونبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5 /324.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" الحلقة الثالثة والأخيرة

يقول الله تعالى في معرض الإخبار عن كفايته نبيه، صلى الله عليه وسلم: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى مسألة دخول المتوكلين على الله الجنة بغير حساب، حسب الحديث الصحيح الذي رواه ابن عباس، رضي الله عنهما، "ولما أثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الذين كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، قَامَ إليه عُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ، فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهم، قال: اللهم اجْعَلْهُ منهم، ثم قال للذي طلب أن يدعو له ليكون منهم: سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ"، ويُطمئن الله المتوكلين عليه سبحانه حق التوكل، بأنه يكفيهم، ويحقق لهم الخير، ويصرف عنهم الشر، ومعنى قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} أي كافيه، حيث لا يحتاج معه إلى غيره، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} أي يبلغ ما يريد، ولا يعجزه شيء، وهذا حض على التوكل، وتأكيد له؛ ويستند الرازي إلى قوله سبحانه: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} لقوله: واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات، كفاه الله تعالى كل الملمات، وجاء في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أن هذه الآيات كلها عظة للناس جميعهم، وقال ابن مسعود: هذه أكثر الآيات حضاً على التفويض.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟

الآية الكريمة السادسة والثلاثون من سورة الزمر، والمثبت نصها أعلاه، استهلها الله بسؤال تقريري، دل على توليه سبحانه كفاية رسوله، صلى الله عليه وسلم، وحمايته

* الزمر: 36.

والـذود عنـه، فقـال عـز وجـل: {أَلَيْـسَ اللَّـهُ بِـكَافٍ عَبْـدَهُ}؟ وفي هـذا تقويـة لقلـب محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وإزالـة للخـوف الـذي كان الكفـار يخوفونـه.[1]

يقـول الـرازي: جـرت العـادة أن المبطلـين يخوفـون المحقـين بالتخويفات الكثيرة، فحسـم اللـه مـادة هـذه الشـبهة بقولـه تعـالى: {أَلَيْـسَ اللَّـهُ بِـكَافٍ عَبْـدَهُ} وذكـره بلفـظ الاسـتفهام، والمـراد تقريـر ذلـك في النفـوس، والأمـر كذلـك؛ لأنـه ثبـت أنـه عـالم بالمعلومـات جميعهـا، قـادر عـلى كل الممكنـات، غنـي عـن كل الحاجـات، فهـو تعـالى عـالم حاجـات العبـاد، وقـادر عـلى دفعهـا وإبدالهـا بالخـيرات والراحـات، وهـو ليـس بخيـلاً ولا محتاجـاً.[2]

وعـن عمليـة التخويـف التـي يقـوم بهـا أهـل الباطـل للمؤمنـين، يقـول عـز وجـل في الآيـة الكريمـة أعـلاه مـن سـورة الزمـر: {وَيُخَوِّفُونَـكَ بِالَّذِيـنَ مِـنْ دُونِـهِ وَمَـنْ يُضْلِلِ اللَّـهُ فَـمَا لَـهُ مِـنْ هَـادٍ} فخوفـوه بأوثانهـم، يقولـون تفعـل بـك كـذا وتفعـل، أو خوفـوه مـن أنفسـهم بالتهديـد والوعيـد.[3]

وفي قولـه تعـالى: {وَيُخَوِّفُونَـكَ} تهكـم بهـم؛ لأنهـم خوفـوه بمـا لا يقـدر عـلى نفـع ولا ضرر، ونظـير هـذا التخويـف قـول قـوم هـود لـه: {إِنْ نَقُـولُ إِلَّا اعْـتَرَاكَ بَعْـضُ آلِهَتِنَـا بِسُـوءٍ}[4][5] ورد عليهـم هـود، عليـه السـلام، وقتهـا بـرد مفعـم باليقـين والإيمـان: {... قَـالَ إِنِّي أُشْـهِدُ اللَّـهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَـرِيءٌ مِـمَّا تُشْرِكُـونَ}[6]

تفويض أمور العباد لله:

الاحتسـاب المتضمـن في قولـه تعـالى: {الَّذِيـنَ قَـالَ لَهُـمُ النَّـاسُ إِنَّ النَّـاسَ قَـدْ جَمَعُـوا

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 3 /195.
2. التفسير الكبير: 26 /244.
3. تفسير العز بن عبد السلام: 3 /100.
4. هود: 54.
5. تفسير البحر المحيط: 7 /413.
6. هود: 54.

لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[1] يتقاطع مع معناه التفويض، المتضمن في مثل قوله تعالى: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[2] وقد وردت هذه المقولة الإيمانية خلال محاورة فرعون وزبانيته، الذين بلغوا في الجحود عتياً، فكان تفويض الأمر إلى الله من قبل المؤمنين مترافقاً مع إقامة الحجة على الجاحدين المنكرين، ووعيدهم بالندم الذي سينتابهم في العاقبة.

ولم يتأخر نصر الله عن المؤمنين، الذي تزامن مع إلحاق العذاب بآل فرعون، مصداقاً لقوله عز وجل: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}. [3]

ولم تكن هذه الحالة الوحيدة التي لقي فيها دعاء المؤمنين استجابة فورية من الله جل في علاه، فنوح، عليه السلام، لما دعا الله قائلاً: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}[4] جاءته الاستجابة الربانية على الفور، بدليل حرف (الفاء) الذي استهل به الفعل الرباني المعبر عن الاستجابة لنوح، عليه السلام، {فَفَتَحْنَا} ومعلوم لغوياً أن (الفاء) حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، فقال تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}[5]

1. آل عمران: 173.
2. غافر: 44.
3. غافر: 45 - 46.
4. القمر: 10.
5. القمر: 9 - 17.

ومـن هـذه المنطلقـات الإيمانيـة نتوجـه للـه متضرعـين، قائلـين: إنـا نشـكو إليـك ضعـف قوتنـا، وقلـة حيلتنـا، وهواننـا عـلى النـاس، يـا أرحـم الراحمـين أنـت رب المسـتضعفين، وأنـت ربنـا، لمـن تكلنـا، إلى عبيـد يتجهموننـا؟! أو إلى أعـداء ملكتهـم أمورنـا؟! إن لم يكـن بـك غضـب علينـا فـلا نبـالي، ولكـن عافيتـك هـي أوسـع لنـا، نعـوذ بنـور وجهـك مـن أن ينـزل بنـا غضبـك، أو يحـل علينـا سـخطك، لـك العتبـى حتـى تـرضى[*] ولا حـول ولا قـوة إلا بـك.

وبهـذه الوقفـة نختـم في هـذه المرحلـة الحديـث عـن أبعـاد إيمانيـة ذات صلة بقولـه تعالى: {حَسْـبُنَا اللَّـهُ وَنِعْـمَ الْوَكِيـلُ} الـذي اسـتحضر ذكـره خليـل اللـه إبراهيـم، عليـه السـلام، ونبينـا محمـد، صـلى اللـه وسـلم وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* أي نسترَضِيكَ حتَّى تَرضَى-

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم"

الحلقة الأولى

عـن الْـبَرَاءَ بـن عَـازِبٍ، رضي الله عنهما، قـال: (جَعَـلَ النَّبِـيُّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، عَـلَى الرَّجَّالَـةِ يَـوْمَ أُحُـدٍ، وَكَانُـوا خَمْسِـينَ رَجُـلًا عَبْـدَ اللَّـهِ بْـنَ جُبَـيْرٍ، فَقَـالَ: إِنْ رَأَيْتُمُونَـا تَخْطَفُنَـا الطَّـيْرُ، فَـلاَ تَبْرَحُـوا مَكَانَكُـمْ هَـذَا حَتَّـى أُرْسِـلَ إِلَيْكُـمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَـا هَزَمْنَـا القَـوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَـلاَ تَبْرَحُـوا حَتَّـى أُرْسِـلَ إِلَيْكُـمْ، فَهَزَمُوهُـمْ، قَـالَ: فَأَنَـا وَاللَّـهِ رَأَيْـتُ النِّسَـاءَ يَشْـتَدِدْنَ، قَـدْ بَـدَتْ خَلاَخِلُهُـنَّ وَأَسْـوُقُهُنَّ، رَافِعَـاتٍ ثِيَابَهُـنَّ، فَقَـالَ أَصْحَـابُ عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ جُبَـيْرٍ: الغَنِيمَـةَ، أَيْ قَـوْمِ الغَنِيمَـةَ، ظَهَـرَ أَصْحَابُكُـمْ، فَـمَا تَنْتَظِـرُونَ؟ فَقَـالَ عَبْـدُ اللَّـهِ بْـنُ جُبَـيْرٍ: أَنَسِـيتُمْ مَـا قَـالَ لَكُـمْ رَسُـولُ اللَّـهِ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؟ قَالُـوا: وَاللَّـهِ لَنَأْتِـيَنَّ النَّـاسَ، فَلَنُصِيـبَنَّ مِـنَ الغَنِيمَـةِ، فَلَـمَّا أَتَوْهُـمْ صُرِفَـتْ وُجُوهُهُـمْ، فَأَقْبَلُـوا مُنْهَزِمِـينَ، فَـذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُـمُ الرَّسُـولُ فِي أُخْرَاهُـمْ. فَلَـمْ يَبْـقَ مَـعَ النَّبِـيِّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، غَـيْرُ اثْنَـيْ عَـشَرَ رَجُـلًا، فَأَصَابُـوا مِنَّـا سَـبْعِينَ. وَكَانَ النَّبِـيُّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وَأَصْحَابُـهُ أَصَابُـوا مِـنَ المُشْرِكِـينَ يَـوْمَ بَـدْرٍ أَرْبَعِـينَ وَمِائَـةً، سَـبْعِينَ أَسِـيرًا، وَسَـبْعِينَ قَتِيـلًا.

فَقَـالَ أَبُـو سُـفْيَانَ: أَفِي القَـوْمِ مُحَمَّـدٌ؟ ثَـلاَثَ مَـرَّاتٍ، فَنَهَاهُـمُ النَّبِـيُّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، أَنْ يُجِيبُـوهُ، ثُـمَّ قَـالَ: أَفِي القَـوْمِ ابْـنُ أَبِي قُحَافَـةَ؟ ثَـلاَثَ مَـرَّاتٍ، ثُـمَّ قَـالَ: أَفِي القَـوْمِ ابْـنُ الخَطَّـابِ؟ ثَـلاَثَ مَـرَّاتٍ، ثُـمَّ رَجَـعَ إِلَى أَصْحَابِـهِ، فَقَـالَ: أَمَّـا هَـؤُلاَءِ، فَقَـدْ قُتِلُـوا، فَـمَا مَلَـكَ عُمَـرُ نَفْسَـهُ، فَقَـالَ: كَذَبْـتَ وَاللَّـهِ يَـا عَـدُوَّ اللَّـهِ، إِنَّ الَّذِيـنَ عَـدَدْتَ لَأَحْيَـاءٌ كُلُّهُـمْ، وَقَـدْ بَقِـيَ لَـكَ مَـا يَسُـوءُكَ قَـالَ: يَـوْمٌ بِيَـوْمِ بَـدْرٍ، وَالحَـرْبُ سِـجَالٌ، إِنَّكُـمْ سَـتَجِدُونَ فِي القَـوْمِ مُثْلَـةً، لَـمْ آمُـرْ بِهَـا، وَلَـمْ تَسُـؤْنِي، ثُـمَّ أَخَـذَ يَرْتَجِـزُ: أُعْـلُ هُبَـلْ، أُعْـلُ هُبَـلْ.

قَـالَ النَّبِـيُّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: أَلاَ تُجِيبُـوا لَـهُ، قَالُـوا: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، مَـا نَقُـولُ؟ قَـالَ: قُولُـوا: اللَّـهُ أَعْـلَى وَأَجَـلُّ، قَـالَ: إِنَّ لَنَـا العُـزَّى وَلاَ عُـزَّى لَكُـمْ، فَقَـالَ النَّبِـيُّ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: أَلاَ تُجِيبُـوا لَـهُ؟ قَـالَ: قَالُـوا: يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، مَـا نَقُـولُ؟ قَـالَ: قُولُـوا اللَّـهُ مَوْلاَنَـا، وَلاَ مَـوْلَى لَكُـمْ)[1]

مناسبة قول: "الله مولانا ولا مولى لهم" في غزوة أحد:

الصحـابي الـبراء بـن عـازب، رضي اللـه عنـه، يخـبر في حديثـه السـالف، عـن المناسـبة التـي قـال فيهـا النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (اللـه مولانـا ولا مـولى لهـم)، وهـي تتعلـق بغـزوة أحـد وتداعياتهـا، فمعلـوم أن العـام الثالـث الهجـري شـهد ثـاني لقـاء حـربي كبـير بـين المسـلمين، بقيـادة الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وقريـش بقيـادة أبي سـفيان بـن حـرب، وكان اللقـاء الأول الفاصـل لصالـح المسـلمين يـوم بـدر، الـذي وقـع في السـنة الثانيـة للهجـرة، ومَـنَ اللـه عـلى المسـلمين بنصرهـم فيـه، فقـال عـز وجـل: {وَلَقَـدْ نَصَرَكُـمُ اللّـهُ بِبَـدْرٍ وَأَنتُـمْ أَذِلَّـةٌ فَاتَّقُـواْ اللّـهَ لَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ}[2]، فـأرادت قريـش اسـترداد اعتبارهـا وهيبتهـا بعـد هزيمتهـا في بـدر، فالتقـى الفريقـان عنـد جبـل أحـد، وكانـت المعركـة لصالـح المسـلمين في البدايـة، لكنهـا انقلبـت رأسـاً عـلى عقـب، لخلـل حصـل مـن بعـض المسـلمين المشـاركين فيهـا، حيـث خالـف الرمـاة المكلفـين بالبقـاء عـلى الجبـل، دون أن يفارقـوا موقعهـم، بغـض النظـر عـن مجريـات الأمـور عـلى أرض المعركـة، حيـث قـال لهـم النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إن رَأَيْتُمُونَـا تَخْطَفُنَـا الطَّـيْرُ، فَـلا تَبْرَحُـوا مَكَانَكُـمْ هَـذا حتـى أُرْسِـلَ إِلَيْكُـمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَـا هَزَمْنَـا الْقَـوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُـمْ، فَـلا تَبْرَحُـوا حتـى أُرْسِـلَ إِلَيْكُـمْ)

فلـما نـزل الرمـاة عـن الجبـل مخالفـين بذلـك أمـر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بعـد انتصـار المسـلمين في بدايـة المعركـة، لمـا شـاهدوا مـا غنمـه المسـلمون مـن عدوهـم فيهـا، فقالـوا: أَيْ قَـوْمِ، الْغَنِيمَـةَ، ظَهَـرَ أَصْحَابُكُـمْ، فـما تَنْتَظِـرُونَ؟ ولم ينصاعـوا لقـول أميرهـم عبد اللَّـهِ بـن جُبَـيْرٍ: "أَنَسِـيتُمْ مـا قـال لَكُـمْ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم؟" قائلـين: واللـه

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب.
2. آل عمران: 123.

لَنَأْتِيَنَّ الناس، فَلَنُصِيبَنَّ من الْغَنِيمَةِ، وعلى إثر ذلك انقلبت مجريات المعركة، لصالح قريش، وأصابت المسلمين جراح صعبة، وتشتت شملهم، ولم يَبْقَ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فجاء أبو سفيان قائد جيش العدو يستعرض غطرسته، ويمجد آلهة المشركين، وكان مما قال: (إِنَّ لنا الْعُزَّى، ولا عُزَّى لَكُمْ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه الذين ثبتوا معه: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، ما نَقُولُ؟ قال: قُولُوا الله مَوْلَانَا، ولا مولى لَكُمْ).

الدرس الأعظم من مجريات غزوة أحد ونتيجتها:

أصيب المسلمون بجراح صعبة، في غزوة أحد، حيث انقلبت مجرياتها رأساً على عقب، لغير صالح المسلمين، بسبب مخالفة أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد نزول الرماة عن الجبل، فكان ذلك درس لهم وللمسلمين من ورائهم حيث وجدوا، يتلخص مضمونه في وجوب طاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فيما يأمران به، أو ينهيان عنه، وينبغي الحذر كل الحذر من تنكب درب هذه الطاعة وسبيلها، والله تعالى يقول: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[1]

يبين الزمخشري أن الضمير في {أمره} يعود لله سبحانه، أو للرسول، صلى الله عليه وسلم، والمعنى عن طاعته ودينه، وأن معنى (فتنة) في قوله تعالى:{أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} محنة في الدنيا، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} في الآخرة، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، {فتنة} قتل، وعن عطاء: زلازل وأهوال، وعن جعفر بن محمد: يُسلَّطُ عليهم سلطان جائر.[2]

راجين الله أن يوفق لمتابعة الحديث في الحلقة القادمة عن مفهوم ودلالة قول: (الله مولانا ولا مولى لهم) الصادر عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. النور: 63.
2. الكشاف: 3/ 265.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم" الحلقة الثانية

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند حديث الْبَرَاء بن عَازِبٍ، رضي الله عنهما، الذي أمر فيه النبي، صلى الله عليه وسلم، الذين ثبتوا معه من صحابته الأبرار، رضي الله عنهم، في غزوة أحد، بعد الجراح التي أصابت عناصر جيش المسلمين فيها، بأن يردوا على تباهي أبي سفيان قائد جيش المشركين وقتها بالعُزى، وهو اسم لآلهة المشركين، فأمرهم عليه الصلاة والسلام، بأن يردوا عليه بقول: (الله مَوْلَانَا ولا مولى لَكُمْ).[2]

وأشارت الحلقة للدرس الأعظم من مجريات غزوة أحد ونتيجتها، الذي يتلخص بضرورة أخذ العبرة من العواقب الوخيمة لتنكب درب طاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فيما يأمران به، وينهيان عنه، فالويل والخسران، والفشل الذريع، والعذاب الأليم في الدارين، لمتنكبي هذا الدرب القويم.

مفهوم مبدأ: "الله مولانا ولا مولى لهم":

المبدأ نفسه المتضمن في قوله، صلى الله عليه وسلم: (الله مولانا ولا مولى لهم)، تكرره الآية الكريمة الحادية عشرة من سورة محمد، المثبت نصها أعلاه، فاللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا، والْكَافِرون لَا مَوْلَى لَهُمْ، وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق بيان انتصار الله للمؤمنين، وتثبيت أقدامهم، وإضلال أعمال الكافرين، ووصمهم بالتعس؛ وهو العثار والهلاك.[3]

1. محمد: 11.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 47.

ويبين صاحب أضواء البيان، بأن معنى قوله تعالى: {أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}[1]، في هذه الآية الكريمة؛ أي أبطل ثوابها، وأصله من الضلال، بمعنى الغيبة والاضمحلال، لا من الضالة، كما زعمه الزمخشري، فهو كقوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}[2]، والله تعالى يقول: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً}[3]

ويرجح صاحب أضواء البيان هذا الرأي بقوله: وهذا هو الصواب في معنى الآية. وقيل: {أضل أعمالهم}؛ أي أبطل كيدهم الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي، صلى الله عليه وسلم.[4] ومعنى إحباط أعمالهم، أي إبطالها وإذهابها.[5]

وفي سياق التفريق بين حالي المؤمنين والكافرين بالنسبة إلى موالاة الله ونصره، تلفت الآيات الكريمة الأنظار إلى عاقبة الذين كفروا من قبل، فدمر الله عليهم، وتوعد الكافرين بمصير مشابه، معللة الموقف من الحالين، بقوله عز وجل: {ذلك بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ* وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[6]

يبين الرازي: أن قوله تعالى هنا: {ذلِكَ} يحتمل أن يكون إشارة إلى النصر، ويحتمل وجهاً آخر أغرب من حيث النقل، وأقرب من حيث العقل، وهو أن في قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [7]، إشارة إلى أن قوم محمد، عليه الصلاة والسلام، أُهلكوا بأيدي أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم، وهو آلم من الهلاك بالسبب العام، قال تعالى: {ذلِكَ} أي

1. محمد: 1.
2. الأنعام: 24.
3. الفرقان: 23.
4. أضواء البيان: 7/ 244 - 245.
5. تفسير السعدي: 1/ 789.
6. محمد: 7 - 11.
7. محمد: 10.

الإهلاك والهوان بسبب أن الله تعالى ناصر المؤمنين، والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر، وتركوا الله، فلا ناصر لهم، ولا شك أن من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والأسر، وإن كان له ألف ناصر، فضلاً عن أن يكون لا ناصر لهم، فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: {لاَ مَوْلَى لَهُمْ} وبين قوله: {مَوْلَاهُمُ الْحَقّ}[1]؟

يقول الرازي: المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر، فحيث قال: {لاَ مَوْلَى لَهُم} أراد لا ناصر لهم، وحيث قال: {مَوْلَاهُمُ الْحَقّ} أي ربهم ومالكهم، وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله، وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس، فليس له ناصر.[2]

شواهد قرآنية لموالاة الله للمؤمنين:

حقيقة أن الله مولى المؤمنين وأهل الحق، أكدتها آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[3]، وتفسير قوله تعالى: {فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ} أي وليكم الذي يحفظكم، ويرفع البلاء عنكم، ثم بين أنه تعالى: {نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} وكل ما كان في حماية هذا المولى، وفي حفظه وكفايته، كان آمناً من الآفات، مصوناً عن المخوفات. [4]

ويأتي التأكيد على طمأنة المؤمنين إلى حقيقة أن الله مولاهم، في قوله عز وجل: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[5]

1. الأنعام: 62.
2. التفسير الكبير: 28 /44.
3. الأنفال: 40.
4. التفسير الكبير : 15/ 131.
5. الحج: 78.

يبين السعدي في تفسيره، بأن الله في هذه الآية الكريمة يأمر المؤمنين بأن يمتنعوا به، ويتوكلوا عليه، ولا يتكلوا على حولهم وقوتهم، فهو سبحانه مولاهم الذي يتولى أمورهم، فيدبرها بحسن تدبيره، ويصرفها على أحسن تقدير، وهو نعم المولى، ونعم النصير؛ أي نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره، فدفع عنه المكروه.(*)

راجين توفيق الله لمتابعة الحديث في الحلقة القادمة عن قول: (الله مولانا ولا مولى لهم) الصادر عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* تفسير السعدي: 1 /547.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم"
الحلقة الثالثة

يخاطب الله تعالى نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول: {إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[1]

تعرضت الحلقة السابقة لبيان مفهوم مبدأ: (الله مولانا ولا مولى لهم) الذي عبر عنه في سورة محمد بقوله تعالى: {ذلك بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[2] وذلك في سياق بيان انتصار الله للمؤمنين، وتثبيت أقدامهم، وإضلال أعمال الكافرين، وفي سياق التفريق بين حالي المؤمنين والكافرين تجاه موالاة الله ونصره، فلفتت الآيات الكريمة الأنظار إلى عاقبة الذين كفروا من قبل، فدمر الله عليهم، وتوعد الكافرين بمصير مشابه، معللة الموقف من الحالين، بقوله عز وجل: {ذلك بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[3] وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله، وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس، فليس له ناصر.

ومن الشواهد القرآنية لموالاة الله للمؤمنين، قوله تعالى: {وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[4] وتفسير قوله تعالى: {فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ} أي وليكم الذي يحفظكم، ويرفع البلاء عنكم، ثم بين أنه تعالى: {نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} وكل ما كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته، كان آمناً من الآفات، مصوناً عن المخوفات.

---

1. الجاثية: 19.
2. محمد: 11.
3. محمد: 11.
4. الأنفال: 40.

ويـأتي التأكيـد عـلى طمأنـة المؤمنـين إلى حقيقـة أن اللـه مولاهـم، في قولـه عـز وجـل: {... وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[1].

فاللـه في هـذه الآيـة الكريمـة يأمـر المؤمنـين بـأن يمتنعـوا بـه، ويتوكلـوا عليـه، ولا يتكلـوا عـلى حولهـم وقوتهـم، فهـو سـبحانه مولاهـم الـذي يتـولى أمورهـم، فيدبرهـا بحسـن تدبـيره، ويصرفهـا عـلى أحسـن تقديـر، وهـو نعـم المـولى ونعـم النصـير، أي نعـم المـولى لمـن تـولاه، فحصـل لـه مطلوبـه، ونعـم النصـير لمـن اسـتنصره، فدفـع عنـه المكـروه.[2]

والآيـة القرآنيـة الكريمـة التاسـعة عـشرة مـن سـورة الجاثيـة، المثبـت نصهـا أعـلاه، تؤكـد حقيقـة {اللـه مولانـا ولا مـولى لهـم} بتطرقهـا لثلاثـة أبعـاد بالخصـوص.

إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً:

يفـسر الـرازي المـراد بمعنـى هـذا المقطـع مـن الآيـة الكريمـة، فيقـول: أي لـو ملـت إلى أديانهـم الباطلـة، فـصرت مسـتحقاً للعـذاب، فهـم لا يقـدرون عـلى دفـع عـذاب اللـه عنـك.[3]

يـأتي هـذا التحذيـر في هـذه الآيـة الكريمـة تبعـاً للآيـة السـابقة لهـا مـن سـورة الجاثيـة، حيـث حُـذِر النبـي الكريـم محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وهـو الأسـوة والمثـل الأعـلى للمؤمنـين، مـن اتبـاع أهـواء الجاهلـين، فقـال تعـالى: {ثُـمَّ جَعَلْنَـاكَ عَـلَى شَرِيعَـةٍ مِّـنَ الْأَمْـرِ فَاتَّبِعْهَـا وَلَا تَتَّبِـعْ أَهْـوَاء الَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُـونَ}[4]، وتأكـد هـذا التحذيـر في آيـات قرآنيـة أخـرى، ففـي سـورة المائـدة يقـول سـبحانه: {وَأَنزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِالْحَـقِّ مُصَدِّقـاً لمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ مِـنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِنـاً عَلَيْـهِ فَاحْكُـم بَيْنَهُـم بِمَـا أَنـزَلَ اللّـهُ وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْوَاءهُـمْ عَـمَّا جَـاءكَ مِـنَ الْحَـقِّ لِـكُلٍّ جَعَلْنَـا مِنكُـمْ شِرْعَـةً وَمِنْهَاجـاً...* وَأَنِ احْكُـم بَيْنَهُـم بِمَـا أَنـزَلَ اللّـهُ وَلاَ تَتَّبِـعْ أَهْوَاءهُـمْ وَاحْذَرْهُـمْ أَن يَفْتِنُـوكَ عَـن بَعْـضِ مَـا أَنـزَلَ اللّـهُ إِلَيْـكَ....}[5] وفي سـورة الشـورى يقـول عـز

---

1. الحج: 78.
2. تفسير السعدي: 1/ 547.
3. التفسير الكبير: 27 /228.
4. الجاثية: 18.
5. المائدة: 48 - 49.

وجل: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ...}[1]

فهذه الآيات القرآنية وغيرها تتضافر في أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بالحكم بما أنزل الله والاستقامة على ما أُمر به، وتحذره من اتباع أهواء الضالين من الخلق، وإذا كانت هذه الصرامة التحذيرية الواضحة موجهة للنبي، صلى الله عليه وسلم، فغيره من المسلمين مدعو للأخذ بهذا الهدي الرباني، وإلا فالخلق ولو اجتمعوا على نصره وعونه لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

فئات الناس بعضهم أولياء بعض:

بعد أن بيّن تعالى لرسوله، صلى الله عليه وسلم، بِأَنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنه مِنَ اللَّهِ شَيئاً، بين سبحانه بأن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا وفي الآخرة، ولا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب وإزالة العقاب.[2] فيتوازى مع ولاية الله للمؤمنين، افتقار أعدائهم لهذه الولاية، والفرق شاسع بين ولاية الله وولاية غيره، فالله ذو القوة المتين، فعال لما يريد، وغيره ضعيف مهما بلغت درجة قوته، فالخلق فقراء إلى الله، وهو غني عنهم، وبهذا الصدد يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[3]

حقيقة ولاية الظالمين بعضهم بعضاً أكدتها آيات أخر، ففي سورة الأنفال يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ...}[4].

وتمت الإشارة في سورة الأنفال نفسها في المقابل إلى ولاية المؤمنين مجاهدين ومهاجرين وأنصار بعضهما بعضاً، فيقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...}[5]، وأشير في سورة التوبة إلى ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم بعضاً، فقال عز وجل:

1. الشورى: 15.
2. التفسير الكبير: 27/ 228.
3. فاطر: 15.
4. الأنفال: 73.
5. الأنفال: 72.

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ...}[1]

إذاً مسألة الولاية محسومة ربانياً، لا خلط فيها ولا اندماج، ففسطاط الحق والإيمان يتولى أفراده، وتتولى فئاته بعضهم بعضاً، وفسطاط الضلال والزيغ تتولى مكوناته بعضها بعضاً، وتم تحذير أهل الحق من الانخداع بما لدى الفسطاط الآخر من حظوة ظاهرة، فقال تعالى موجهاً الخطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم، أيضاً: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[2]

ولضيق المجال نؤجل الوقوف عند البعد الثالث الذي تطرقت إليه الآية الكريمة التاسعة عشرة من سورة الجاثية، في سياق الاستدلال بها على تأكيد حقيقة أن {الله مولانا ولا مولى لهم}، والمتعلق بالنص الصريح على أن الله ولي المتقين، للحلقة القادمة، التي نرجو توفيق الله لمتابعة الحديث فيها عن أبعاد أخرى تتعلق بقول: (الله مولانا ولا مولى لهم) الصادر عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التوبة: 71.
2. آل عمران: 196 - 197.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم"

الحلقة الرابعة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)[1]

تعرضت الحلقة السابقة للتأكيد على طمأنة المؤمنين إلى حقيقة أن الله مولاهم، في قوله عز وجل: {... وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[2]

فالله في هذه الآية الكريمة يأمر المؤمنين بأن يمتنعوا به، ويتوكلوا عليه، ولا يتكلوا على حولهم وقوتهم، فهو سبحانه مولاهم الذي يتولى أمورهم، فيدبرها بحسن تدبيره، ويصرفها على أحسن تقدير، وهو نعم المولى، ونعم النصير.

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}[3] ، تأكيد لحقيقة "الله مولانا ولا مولى لهم" بثلاثة أبعاد:

أولها إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً، وثانيها أن الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ، في الدنيا وفي الآخرة، ولا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب، وإزالة العقاب، فيتوازى مع ولاية الله للمؤمنين، افتقار أعدائهم لهذه الولاية، والفرق شاسع بين ولاية الله وولاية غيره، فالله ذو القوة المتين، فعّال لما يريد، وغيره ضعيف مهما بلغت درجة قوته، فالخلق فقراء إلى الله، وهو غني عنهم، وبهذا الصدد يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. الحج: 78.
3. الجاثية: 19.
4. فاطر: 15.

وحقيقة ولاية الظالمين بعضهم بعضاً أكدتها آيات أخر، وبخاصة في سورتي الأنفال والتوبة.

فمسألة الولاية محسومة ربانياً، لا خلط فيها ولا اندماج، فسطاط الحق والإيمان يتولى أفراده بعضهم بعضاً، وتتولى فئاته بعضها بعضاً، وفسطاط الضلال والزيغ تتولى مكوناته بعضها بعضاً، وتم تحذير أهل الحق من الانخداع بما لدى الفسطاط الآخر من حظوة ظاهرة، فما ذلك إلا متاع قليل زائل.

الله ولي المتقين:

البعد الثالث الذي لم يتسع المجال في الحلقة السابقة للوقوف عنده، والذي تطرقت إليه الآية الكريمة التاسعة عشرة من سورة الجاثية، في سياق الاستدلال بها على تأكيد حقيقة "الله مولانا ولا مولى لهم" يتعلق بالنص الصريح على أن الله ولي المتقين، يذكر صاحب أضواء البيان، أن المتقين الذين وليهم الله هم الذين يمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه، وأن الله ذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه، فهو وليهم وهم أولياؤه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]

ثم بين سبحانه المراد بأوليائه في قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ}[2]، فقوله تعالى: {وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} كقوله في آية الجاثية هذه: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}.

وبين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه، كقوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[3] وقوله تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...}[4]

1. يونس: 62.
2. يونس: 63.
3. المائدة: 55.
4. البقرة: 257.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}[1]

وقوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[2]

وقوله تعالى في الملائكة: {قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم...}[3] إلى غير ذلك من الآيات.[4]

ويذكر أبو السعود في تفسيره أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مشمول بقوله تعالى: {والله ولي المتقين} من حيث إنه قدوتهم، فيطلب منه أن يداوم على ما هو عليه من تولي الله، خاصة الإعراض عما سواه بالكلية.[5]

إعلان الحرب الربانية على الذين يعادون أولياء الله:

أولياء الله هم خاصته الذين تعهد بحمايتهم والذود عنهم، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، المذكور نصه في صدر هذه الحلقة.

يبين ابن حجر العسقلاني بأن المراد ب (ولي الله) العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته، وقد استشكل وجود أحد يعاديه؛ لأن المعاداة إنما تقع من الجانبين، ومن شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلاً، بل قد تقع عن بغض ينشأ عن التعصب.[6]

وجاء في مرقاة المفاتيح، أن الله يعلم من يحارب وليه، فتعهد سبحانه بمحاربته ومعاداته، أو بأنه سيحاربه ويقهره وينتصر منه، وينتقم لوليه، والولي بحسب التركيب يدل على القرب، فكأنه قريب منه سبحانه؛ لاستغراقه في نور معرفته وجماله وجلاله، وكمال مشاهدته.[7]

---

1. محمد:11.
2. الأعراف: 196.
3. سبأ: 41.
4. أضواء البيان: 7 /201، بتصرف.
5. تفسير أبي السعود: 8/ 71.
6. فتح الباري: 11/ 342.
7. مرقاة المفاتيح: 8 /3339.

خاتمة:

موالاة الله للمؤمنين، وحجبها عن الظالمين والكافرين والمتغطرسين، حقيقة قرآنية وعقائدية، وآثارها يشاهدها كل بصير من الخلق، وهي بالإضافة إلى هذا بلسم للمستهدفين بالجراح والاضطهاد؛ كأبناء شعبنا المرابطين في فلسطين وعلى ثغورها، فإن إيمانهم بأن الله مولاهم يدافع عنهم، ويعادي أعداءهم مهم جداً لصمودهم وثباتهم وإصرارهم على التشبث بحقوقهم المشروعة، وحالهم ومقالهم يرددان تلك المقولة الإيمانية، التي نطق بها أسلافهم، وثبتها الله في آية من قرآنه الكريم، فقال تعالى: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}(*)

وبهذه الخاتمة والإعلان الرباني المتضمن تعهده سبحانه بمناصرة أوليائه، وشن الحرب الإلهية على أعدائهم، نختم في هذه المرحلة الحديث عن أبعاد قول: (الله مولانا ولا مولى لهم) الصادر عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التوبة: 52.

الفصل الثاني

عبادات

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

.1	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الأولى	34
.2	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الثانية	38
.3	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الثالثة والأخيرة	41
.4	يبشر من يصوم رمضان ويقومه بالغفران	45
.5	نصره الله بفتح مكة في رمضان، فأكثر من تسبيح الله وحمده واستغفاره	49
.6	ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة - الحلقة الأولى	52
.7	ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة - الحلقة الثانية والأخيرة	55
.8	يخبر عن مباهاة الله بأهل عرفة	59
.9	يشرع أعمالاً ونسكاً ليومي عرفة والنحر	63

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان

الحلقة الأولى

نـزول القـرآن الكريـم في شـهر رمضـان عـلى النبـي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، حقيقـة يقرهـا القـرآن الكريـم، فيقـول عـز وجـل: {شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّـذِيَ أُنـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مـنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ فَمَـن شَـهِدَ مِنكُـمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ وَمَـن كَانَ مَرِيضـاً أَوْ عَـلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مـنْ أَيَّـامٍ أُخَـرَ يُرِيـدُ اللّـهُ بِكُـمُ الْيُـسْرَ وَلاَ يُرِيـدُ بِكُـمُ الْعُـسْرَ وَلِتُكْمِلُـواْ الْعِـدَّةَ وَلِتُكَـبِّرُواْ اللّـهَ عَـلَى مَـا هَدَاكُـمْ وَلَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ}(*)

فالله سبحانه يثبت في هذه الآية القرآنية الكريمة حقيقة دينية وتاريخية ثابتة بالنص الصحيح، تتعلق بالظرف الزماني الذي بدأ فيه نزول القرآن الكريم من الله، الذي كان في شهر رمضان المبارك، الذي فرض الله صيامه على المسلمين، وشرع سبحانه أحكاماً تفصيلية لهذا الصيام، معقباً بتقرير قاعدة يجدر تأملها ومراعاتها على الدوام، فالتيسير ورفع الحرج والعسر مبدأ ينبغي شكر الله عليه، إلى جانب لزوم الحذر من الغلو، ومن أي اجتهاد يفضي للتعسير، فغاية فرض العبادات على المؤمنين ليس منها التجبر والتضييق، بل تهدف إلى تحقيق الهداية المنجية، وشكر الله على آلائه وهدايته ونعمه.

لفظ القرآن:

ذكر لفظ القرآن فيه معرفاً بأل التعريف خمسين مرة، وعشرين مرة دونها، وهذه موزعة على خمس عشرة سورة، وذلك على النحو المبين في الجدول الآتي:

* البقرة: 185.

الرقم	السورة	الآية	موضع الذكر	الرقم	السورة	الآية	موضع الذكر
1	يونس	15	{قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ...}	11	الزمر	28	{قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}
2	يونس	61	{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ}	12	فصلت	3	{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}
3	يوسف	2	{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}	13	فصلت	44	{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ...}
4	الرعد	31	{وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِه الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِه الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى..}	14	الشورى	7	{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...}
5	الحجر	1	{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ}	15	الزخرف	3	{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}
6	الإسراء	78	{..وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}	16	الواقعة	77	{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}
7	الإسراء	78	{...إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}	17	الجن	1	{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً}
8	الإسراء	106	{وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً}	18	القيامة	17	{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}
9	طه	113	{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً}	19	القيامة	18	{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}
10	يس	69	{...وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ}	20	البروج	21	{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ}

اشتقاق لفظ القرآن:

للمفسرين في اشتقاق لفظ القرآن قولان:

أحدهما: قول ابن عباس، أن القرآن والقراءة واحد، بدليل قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَهُ}[1] أي تلاوته، أي إذا تلوناه عليك فاتبع تلاوته.

الثاني: وهو قول قتادة، أنه مصدر، من قول القائل: قرأت الماء في الحوض، إذا جمعته، وقال سفيان بن عيينة: سمي القرآن قرآناً؛ لأن الحروف جمعت فصارت كلمات، والكلمات جمعت فصارت آيات، والآيات جمعت فصارت سوراً، والسور جمعت فصارت قرآناً، ثم جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فالحاصل أن اشتقاق لفظ القرآن إما من التلاوة، أو من الجمعية.[2]

القرآن وحي من الله:

ينبغي أن يذكر الباحث في علوم القرآن الكريم حقيقة أنه من عند الله وحده، وأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تلقاه وحياً عن طريق الأمين جبريل، عليه السلام، باللفظ والمعنى والترتيب والكيفية التي أرادها الله وأمر بها، ولم يكن للوحي دور في ذلك سوى النقل والتبليغ، وقد وصف الله جبريل بالوحي الأمين، فقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[3]

وهذه الحقيقة مؤكدة في عدد من الآيات القرآنية، فالله عز وجل يقول: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ...}[4]، فالله جل وعلا يوجه نبيه، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة إلى أن يقول إن هذا القرآن الذي زعموا أنه افتراء بسبب تبديل الله آية مكان آية، أنه نزله عليه روح القدس من ربه جل وعلا،

---

1. القيامة: 18.
2. التفسير الكبير: 2 س/13 - 14.
3. الشعراء:192 - 195.
4. النحل:102.

فليس مفترياً له، وروح القدس جبريل، ومعناه الروح المقدس؛ أي الطاهر من كل ما لا يليق. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ...}[1] وقوله: {...وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...}[2]

وقوله:{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[3] إلى غير ذلك من الآيات.[4]

فالقرآن نزل به الوحي الأمين على قلب النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي لم يكن له حياله سوى التلقي والحفظ والتفسير والتبليغ، فهو كما وصف الله حاله محكم الآيات، فقال عز وجل: {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[5]

سائلين الله العلي القدير أن ييسر متابعة الحديث عن إنزال القرآن الكريم في شهر رمضان، على قلب الرسول محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. البقرة:97.
2. طه:114.
3. القيامة:16 - 19.
4. أضواء البيان: 2 /453.
5. هود: 1.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان

الحلقة الثانية

عـن أبي هُرَيْـرَةَ قـال: (كان يَعْـرِضُ عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الْقُـرْآنَ كُلَّ عَـامٍ مَـرَّةً، فَعَـرَضَ عليـه مَرَّتَـيْنِ في العَـامِ الـذي قُبِـضَ فيـه، وكان يَعْتَكِـفُ كُلَّ عَـامٍ عَـشْرًا، فَاعْتَكَـفَ عِشْرِيـنَ في العَـام الـذي قُبِـضَ فيـه)(*)

تضمنـت الحلقـة السـابقة تمهيـداً دار محـوره حـول مضمـون الآيـة القرآنيـة (185) مـن سـورة البقـرة المخـبرة عـن نـزول القـرآن الكريـم في شـهر رمضـان، الـذي فـرض اللـه فيـه الصيـام، وعـرض فيهـا جـدول لتوزيـع مواضـع ذكـر لفـظ القـرآن فيـه، مجـرداً عـن أل التعريـف، وبلغـت عشريـن موضعـاً، موزعـة عـلى خمـس عـشرة سـورة، مـع التنويـه إلى أن لفـظ القـرآن بـأل التعريـف ذكـر خمسـون مـرة، ثـم جـرى بيـان اشـتقاق لفـظ القـرآن، الـذي تلخصـت أقـوال المفسريـن فيـه باثنـين، أحدهـما: التـلاوة، والثـاني الجمـع.

والقـرآن وحـي مـن اللـه تلقـاه الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وحيـاً عـن طريـق الأمـين جبريـل، عليـه السـلام، باللفـظ والمعنـى، والترتيـب والكيفيـة التـي أرادهـا اللـه، وأمـر بهـا، ولم يكـن للوحـي دور في ذلـك سـوى النقـل والتبليـغ، وهـذه الحقيقـة مؤكـدة في عـدد مـن الآيـات القرآنيـة.

العرض السنوي للقرآن الكريم:

كان جبريـل، عليـه السـلام، يَعْـرِضُ عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الْقُـرْآنَ كُلَّ عَـامٍ مَـرَّةً، فَعَـرَضَ عليـه مَرَّتَـيْنِ في الْعَـامِ الـذي قُبِـضَ فيـه، كـما هـو مبـين في حديـث أبي هريـرة، رضي اللـه عنـه، أعـلاه، وكانـت تلـك مـن إيحـاءات دنـو أجلـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فعـن فَاطِمَـةَ، رضي اللـه عنهـا: (أَسَرَّ إليّ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أَنَّ جِبْرِيـلَ كان يُعَارِضُنِـي

* صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي، صلى الله عليه وسلم.

بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إلا حَضَرَ أَجَلِي)[1]

ومعنى (يعارضني القرآن) من المعارضة، وهي المقابلة، ومنه عارضت الكتاب بالكتاب، أي قابلت به. وقوله: (ولا أراه إلا حضر أجلي) بضم الهمزة، أي ولا أظنه إلاَّ أن موتي قرب.[2] وقيل في معنى يعارضني: أي يدارسني.[3]

كيفية نزول القرآن:

جاء في مناهل العرفان في علوم القرآن، أن مبحث نزول القرآن مهم في علوم القرآن، بل هو أهم مباحثه جميعاً، لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن، وأنه كلام الله، وأساس للتصديق بنبوة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأن الإسلام حق، وأن التعبير بمادة نزول القرآن، وما تصرف منها جاء في الكتاب والسنة، ومن أمثلته قوله سبحانه: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}[4][5]

وقد نزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة، ثم صار ينزل به الوحي على النبي، صلى الله عليه وسلم، مفرقاً، ودلت آيات كريمة عديدة على نزول القرآن الكريم جملة واحدة، منها الآية الكريمة من سورة البقرة التي تثبت أن القرآن أُنزل في شهر رمضان، وفي سورة القدر إخبار عن نزوله في ليلة القدر، ويشهد لنزول القرآن الكريم مفرقاً قوله تعالى: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً}[6]، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}[7]، والله بين في هذه الآية الكريمة حكمة جليلة لنزول القرآن مفرقاً بقوله عز وجل: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، وخلال نزول القرآن مفرقاً، نزل على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال.[8]

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. عمدة القاري: 16 /154.
3. عمدة القاري: 20 /23.
4. الإسراء: 105.
5. مناهل العرفان في علوم القرآن: 1 /30.
6. الإسراء: 106.
7. الفرقان: 32.
8. الإتقان في علوم القرآن: 1 /87.

كتابة القرآن الكريم وجمعه:

لقد توفي الرسول، صلى الله عليه وسلم، والقرآن محفوظ في الصدور والسطور المكتوبة، لكنه كان في صحاف مفرقة، فلما مات عدد من الحفظة والقراء، عمل الخليفة أبو بكر الصديق بعد التشاور مع الصحابة الكرام، رضي الله عنه وعنهم، على جمعه في مصحف واحد، وعن هذا العمل البارز، يحدث الصحابي الجليل زيد بن ثابت، رضي الله عنه، فيقول: (أَرْسَلَ إليّ أبو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فإذا عُمَرُ بن الْخَطَّابِ عِنْدَهُ، قال أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه، إنَّ عُمَرَ أَتَاني، فقال: إنَّ الْقَتْلَ قد اسْتَحَرَّ يوم الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ من الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ، قلت لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شيئاً لم يَفْعَلْهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ قال عُمَرُ: هذا والله خَيْرٌ، فلم يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حتى شَرَحَ الله صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ في ذلك الذي رَأَى عُمَرُ، قال زَيْدٌ: قال أبو بَكْرٍ: إنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ، وقد كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ، فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لو كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ من الْجِبَالِ ما كان أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ من جَمْعِ الْقُرْآنِ، قلت: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شيئاً لم يَفْعَلْهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خَيْرٌ، فلم يَزَلْ أبو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حتى شَرَحَ الله صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ له صَدْرَ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رضي الله عنهما، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ من الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حتى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مع أبي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، لم أَجِدْهَا مع أَحَدٍ غَيْرِهِ، {لقد جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ} حتى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتْ الصُّحُفُ عِنْدَ أبي بَكْرٍ حتى تَوَفَّاهُ الله، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ، رضي الله عنه).(*)

سائلين الله العلي القدير أن ييسر متابعة الحديث عن إنزال القرآن الكريم في شهر رمضان، على قلب الرسول محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان

الحلقة الثالثة والأخيرة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، قـال: (قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: ...ومـا اجْتَمَـعَ قَـوْمٌ في بَيْـتٍ مـن بُيُـوتِ اللَّـهِ، يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللَّـهِ وَيَتَدَارَسُـونَهُ بَيْنَهُـمْ إلا نَزَلَـتْ عليهـم السَّـكِينَةُ، وَغَشِـيَتْهُم الرَّحْمَـةُ، وَحَفَّتْهُـم الْمَلَائِكَـةُ، وَذَكَرَهُـم اللـه فِيمَـنْ عِنْـدَهُ، وَمَـنْ بَطَّـأَ بِـهِ عَمَلُـهُ لم يُـسْرِعْ بِـهِ نَسَـبُهُ)(*)

تضمنـت الحلقـة السـابقة ذكـراً للعـرض السـنوي للقـرآن الكريـم، الـذي كان يقـوم بـه جبريـل، عليـه السـلام، حيـث كان يَعْـرِضُ عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الْقُـرْآنَ كُلَّ عَـامٍ مَـرَّةً، وعَـرَضَ عليـه مَرَّتَـيْنِ في الْعَـامِ الـذي قُبِـضَ فيـه، واسـتنتج النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن ذلـك بـأن موتـه قـرب، والعـرض هنـا مـن المعارضـة، وهـي المقابلـة، وتعرضـت الحلقـة كذلـك لكيفيـة نـزول القـرآن، حيـث نـزل مـن اللـوح المحفـوظ جملـة واحـدة، ثـم صـار ينـزل بـه الوحـي عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مفرقـاً، ولـكل مـن النزولـين أدلتـه مـن القـرآن الكريـم، وخـلال نـزول القـرآن مفرقـاً، نـزل عـلى قسـمين: قسـم نـزل ابتـداء، وقسـم نـزل عقـب واقعـة أو سـؤال، وكان كلـما أنـزل عـلى النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، شيء مـن القـرآن أمـر بكتابتـه، وتـوفي صـلى اللـه عليـه وسـلم، والقـرآن محفـوظ في الصـدور والسـطور المكتوبـة، لكنـه كان في صحـاف مفرقـة، فلـما مـات عـدد مـن الحفظـة والقـراء، عمـل الخليفـة أبـو بكـر الصديـق بعـد التشـاور مـع الصحابـة الكـرام عـلى جمعـه في مصحـف واحـد.

* صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

الحث على تلاوة القرآن الكريم:

يشيد الله بقراءة القرآن وقت الفجر، فيقول عز وجل: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}[1] جاء في التسهيل لعلوم التنزيل: وإنما عبر عن صلاة الصبح بقرآن الفجر؛ لأن القرآن يقرأ فيها أكثر من غيرها؛ لأنها تصلى بسورتين طويلتين {إن قرآن الفجر كان مشهوداً} أي تشهده ملائكة الليل والنهار، فيجتمعون فيه، إذ تصعد ملائكة الليل، وتنزل ملائكة النهار.[2]

قراءة ما تيسر من القرآن:

الآية العشرون من سورة المزمل أمر الله فيها بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم في الصلاة، فقال عز وجل: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ...}[3]

يذكر الرازي قولين في تفسير قوله تعالى: {فَاقْرَءواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} الأول: إن المراد من هذه القراءة الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، أي فصلوا ما تيسر عليكم، ثم هاهنا قولان: الأول: قال الحسن يعني في صلاة المغرب والعشاء، وقال آخرون: بل نسخ وجوب ذلك التهجد، واكتفى بما تيسر منه، ثم نسخ ذلك أيضاً بالصلوات الخمس.

القول الثاني: إن المراد من قوله: {فَاقْرَءواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} قراءة القرآن بعينها، والغرض منه دراسة القرآن، ليحصل الأمن من النسيان، قيل: يقرأ مائة آية، وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين، وقيل: خمسين آية، ومنهم من قال: بل السورة القصيرة

---

1. الإسراء: 78.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 177.
3. المزمل: 20 .

كافيـة؛ لأن إسـقاط التهجـد إنمـا كان دفعـاً للحـرج، وفي القـراءة الكثـيرة حـرج، فـلا يمكـن اعتبارهـا.

ثم أعاد مرة أخرى قوله: {فَاقْرَءواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} وذلك للتأكيد.[1]

فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وتدارسه:

يتعبـد المسـلمون للـه بتـلاوة القـرآن الكريـم وتدارسـه، كـما هـو مبـين في حديـث أبي هريـرة، رضي اللـه عنـه، المذكـور آنفـاً، ومـن ثمـرات الاجتـماع عـلى تـلاوة القـرآن وتدارسـه، أن اللـه يُنَـزل عـلى المجتمعـين لهـذه الغاية في المسـاجد السـكينة، وأن رحمته سـبحانه تغشـاهم، وتحفهـم الملائكـة، ويذكرهـم اللـه فيمـن عنـده، يقـول الإمـام النـووي: قيـل المـراد بالسـكينة هنـا الرحمـة، وهـو الـذي اختـاره القـاضي عيـاض، وهـو ضعيـف؛ لعطـف الرحمـة عليـه، وقيـل: الطمأنينـة والوقـار هـو أحسـن، وفي هـذا دليـل لفضـل الاجتـماع عـلى تـلاوة القـرآن في المسـجد، ويلحـق بالمسـجد في تحصيـل هـذه الفضيلـة الاجتـماع في مدرسـة ورباط ونحوهـما -إن شـاء اللـه تعـالى- والتقييـد في الحديـث أعـلاه خـرج عـلى الغالـب، لا سـيما في ذلـك الزمـان، فـلا يكـون لـه مفهـوم يعمـل بـه.

وقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (ومـن بطـأ بـه عملـه لم يـسرع بـه نسـبه) معنـاه مـن كان عملـه ناقصـاً لم يلحقـه بمرتبـة أصحـاب الأعـمال، فينبغـي أن لا يتـكل عـلى شرف النسـب وفضيلـة الآبـاء، ويقـصر في العمـل.[2]

فهنيئـاً لمـن يهديهـم اللـه في رمضـان وغـيره للحـرص عـلى تـلاوة القـرآن وتدارسـه، كيـف لا؟ والقـرآن المصـدر الأول لعلـوم الديـن، التـي يوفـق اللـه مـن يحبـه مـن عبـاده للتفقـه فيهـا، حيـث قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (مـن يُـرِد اللـه بِـهِ خَـيْرًا يُفَقِّهْـهُ في الدِّيـنِ)[3]

---

1. التفسير الكبير: 30 /165.
2. صحيح مسلم بشرح النووي:17/ 21 - 23.
3. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.

ذم هجر القرآن:

في مقابل الثناء على الذين يتلون القرآن ويتدارسونه، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، شكا إلى الله الذين يهجرون القرآن، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً}[1]، يعني: يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، في ذلك اليوم: {يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً} يعني متروكاً فأعرضوا عنه، ولم يؤمنوا به، ولم يعملوا بما فيه، وقيل: جعلوه بمنزلة الهجر، وهو الهذيان، والقول السيئ، فزعموا أنه شعر وسحر، وهو قول النخعي ومجاهد.[2]

سائلين الله العلي القدير أن يهدينا إلى الحرص على تلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، في رمضان وباقي شهور العام، وأن يوفقنا لنهتدي بهديه القويم، والعمل بأحكامه، والتحلي بقيمه وأخلاقه، التي تمثلها الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الفرقان: 30.

2 تفسير البغوي: 3/ 368.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبشر من يصوم رمضان ويقومه بالغفران

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (مـن قـام لَيْلَـةَ الْقَـدْرِ إِيمَانًـا وَاحْتِسَـابًا غُفِـرَ لـه مـا تَقَـدَّمَ مـن ذَنْبِـهِ، وَمَـنْ صَـامَ رَمَضَـانَ إِيمَانًـا وَاحْتِسَـابًا غُفِـرَ لـه مـا تَقَـدَّمَ مـن ذَنْبِـهِ)[1]

يسـوق شـهر رمضـان للمسـلم الصائـم القائـم فرصـة ذهبيـة للتطهـر مـن الذنـوب والخطايـا، مقابـل صيـام نهـاره، وقيـام ليلـه، شريطـة التجـرد للـه في ذلـك بالإخـلاص، فحديث أبي هريـرة، رضي اللـه عنـه، أعـلاه، الـذي يتضمـن وعـداً صادقـاً لمغفـرة ذنـوب الـذي يصـوم رمضـان، ويقـوم ليلـة القـدر، تعاضـده روايـات صحيحـة أخـرى، تعـزز مضمونـه بتوسـيع نطـاق المجـال المتـاح لنيـل الغفـران التـام، ليشـمل قيـام ليـالي رمضـان، فعـن النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (مـن قـام رَمَضَـانَ إِيمَانًـا وَاحْتِسَـابًا غُفِـرَ لـه مـا تَقَـدَّمَ مـن ذَنْبِـهِ).[2]

والمؤمـن باللـه واليـوم الآخـر يتـوق دائمـاً ويتطلـع لأن تغفـر ذنوبـه، التـي يرتكبهـا في حياتـه، سـواء مـا عظـم منهـا ومـا صغـر، وفي رمضـان فـرص مشرعـة متاحـة بيـسر لنيـل التوبـة والغفـران، فالصائـم والقائـم المحتسـبان مرشـحان بقـوة للفـوز بالغفـران، مصداقـاً لوعـوده صـلى اللـه عليـه وسـلم، المتضمنـة في الحديثـين الشريفـين أعـلاه، وغيرهـما.

فطـوبى للصائمـين القائمـين هـذه البـشرى، التـي بهـا ينقشـع اليـأس والقنـوط مـن لقـاء اللـه بأعبـاء الذنـوب والخطايـا، طـوبى لمـن صـام وقـام محتسـباً يقصـد طاعـة اللـه، ونيـل رضـاه، ليجـد جـزاءً وافـراً كريمـاً، يتـوج بعتـق رقبتـه مـن النـار، ويدخـل الجنـة بسـلام، مـع الذيـن

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونيةً.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.

أنعم الله عليهم من صفوة خلقه، في يوم قال الله عن أحواله: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ* وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ* وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}[1]

باب التوبة مفتوح:

فرص التائب من الذنوب متاحة لصاحب التوبة النصوح، الذي يستجيب لأمر الغفور الرحيم، القائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[2]

وغفران الذنوب ليس لأحد سوى الله سبحانه، حتى إن أنبياء الله وأصفياءه ليس لهم منع المغفرة أو منحها لأحد ولا لأنفسهم، وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة العقائدية في خطابه الكريم لصفوة خلقه وخاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}[3]

فعن سَالِم عن أبيه، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا رَفَعَ رَأْسَهُ من الرُّكُوعِ من الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ من الفَجْرِ، يقول: (اللهم العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، بَعْدَ ما يقول سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، فَأَنْزَلَ الله: {ليس لك من الْأَمْرِ شَيْءٌ...إلى قَوْلِهِ: فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}، وَعَنْ حَنْظَلَةَ بن أبي سُفْيَانَ: سمعت سَالِمَ بن عبد اللَّهِ يقول: كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدْعُو على صَفْوَانَ بن أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بن عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بن هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ {ليس لك من الْأَمْرِ شَيْءٌ... إلى قَوْلِهِ: فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}[4]

ومما تعنيه هذه الحقيقة الراسخة، أن الإنسان حتى وهو ينشد التوبة والمغفرة

1. الشعراء: 88 – 91.
2. التحريم: 8.
3. آل عمران: 128.
4. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب {ليس لك من الأمر شيء...}(آل عمران: 128).

عـن ذنـوب ارتكبهـا فـإن كرامتـه تبقـى مصونـة، والاسـتجابة إليـه تخلـو مـن المزاجيـة والظلـم والابتـزاز، فالأمـر ينحـصر بـين التائـب وربـه، الـذي يسـمع دعـاءه دون مزاحمـة مـع الخلـق، ودون أن يحتـاج الداعـي إلى شـفعاء ووسـطاء يسـهلون لـه وصـول طلبـه أو إجابتـه، فالله جـل في عـلاه، يقـول: {وَقَـالَ رَبُّكُـمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُـمْ...}[1]، وبـين سـبحانه لعبـاده أنـه قريـب يجيـب دعـاء السـائلين، فقـال تعـالى: {وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّـي فَـإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيـبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْـتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُـواْ بِي لَعَلَّهُـمْ يَرْشُـدُونَ}[2]

الدعاء والاستغفار في وقت ليلي يغفل عنه كثيرون:

نبـه الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، العبـاد إلى فـترة زمانيـة مهمـة مـن الليـل يكـون الدعـاء فيهـا أقـرب للإجابـة، تلكـم هـي فـترة الثلـث الأخـير مـن الليـل، فقـال: (يَنْـزِلُ رَبُّنَـا تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى كُلَّ لَيْلَـةٍ إلى السَّـمَاءِ الدُّنْيَـا حـين يَبْقَـى ثُلُـثُ اللَّيْـلِ الْآخِـرُ، يقـول: مـن يَدْعُـونِي فَأَسْـتَجِيبَ لـه، مـن يَسْـأَلُنِي فَأُعْطِيَـهُ، مـن يَسْـتَغْفِرُنِي فَأَغْفِـرَ لـه)[3]

وفي هـذا حـثٌ للمؤمنـين في كل العصـور والبقـاع عـلى الدعـاء والاسـتغفار وبخاصـة في الثلـث الأخـير مـن الليـل، يقـول الزرقـاني: وتخصيصـه بالليـل، وثلثـه الآخـر، لأنـه وقـت التهجـد، وغفلـة النـاس عـن التعـرض لنفحـات رحمـة اللـه، وعنـد ذلـك تكـون النيـة خالصـة، والرغبـة إلى اللـه وافـرة، وذلـك مظنـة القبـول والإجابـة.[4]

فيـا لهـا مـن فـرص يتيحهـا اللـه لعبـاده ليرحمهـم، ويغفـر لهـم إسرافهـم وخطاياهـم، وقـد حـث أنبيـاء اللـه أتباعهـم عـلى الاسـتغفار، ليقينهـم بأنـه يغفـر الذنـوب، ويقبـل التوبـة والإنابـة منهـم، ومـن أخبـار هـذا الحـث قولـه سـبحانه عـلى لسـان نـوح، عليـه السـلام: {قَـالَ رَبِّ إِنِّي دَعَـوْتُ قَوْمِـي لَيْـلاً وَنَهَـاراً* فَلَـمْ يَزِدْهُـمْ دُعَـائِي إِلَّا فِـرَاراً* وَإِنِّي كُلَّـمَا دَعَوْتُهُـمْ لِتَغْفِـرَ

1. غافر: 60.
2. البقرة: 186.
3. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل.
4. شرح الزرقاني: 2/ 50.

لَهُـمْ جَعَلُـوا أَصَابِعَهُـمْ فِي آذَانِهِـمْ وَاسْتَغْشَـوْا ثِيَابَهُـمْ وَأَصَرُّوا وَاسْـتَكْبَرُوا اسْـتِكْبَاراً* ثُـمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُـمْ جِهَـاراً* ثُـمَّ إِنِّي أَعْلَنـتُ لَهُـمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُـمْ إِسْرَاراً* فَقُلْـتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُـمْ إِنَّـهُ كَانَ غَفَّـاراً* يُرْسِـلِ السَّـمَاء عَلَيْكُـم مِّـدْرَاراً* وَيُمْدِدْكُـمْ بِأَمْـوَالٍ وَبَنِـينَ وَيَجْعَـل لَّكُـمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَـل لَّكُـمْ أَنْهَـاراً}(*)

سـائلين اللـه العـلي القديـر أن ييـسر لنـا التوبـة والغفـران، والعتـق مـن النـار، والفـوز بالجنة مـع الأبـرار الأخيـار، بمعيـة خـير الأنـام، نبينـا المختـار محمـد، صـلى اللـه وسـلم وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* نوح: 5 – 12.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، نصره الله بفتح مكة في رمضان، فأكثر من تسبيح الله وحمده واستغفاره

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يُكْثِرُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إليه، قالت: فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إليه، فقال: خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً في أُمَّتِي، فإذا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ من قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إليه، فَقَدْ رَأَيْتُهَا {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فَتْحُ مَكَّةَ، {وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ، وَاسْتَغْفِرْهُ إنه كان تَوَّابًا})[1]

يوم الفتح الأعظم الذي كان في الثلث الأخير من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، نصر الله به دينه، وأعز جنده، وكان شاهداً على إحقاق الحق وزهق الباطل، فردد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيه أمر الله: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}[2]، وعن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قال: (دخل النبي، صلى الله عليه وسلم، مَكَّةَ، وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وثلاث مائة نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ في يَدِهِ، وَيَقُولُ: {جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كان زَهُوقًا} {جاء الْحَقُّ وما يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وما يُعِيدُ})[3]

نعى الله إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، نفسه في سورة النصر:

أنزل الله سورة النصر التي تضمنت أمراً للنبي، صلى الله عليه وسلم، بتسبيح الله وبحمده، واستغفاره سبحانه، فقال عز وجل: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.
2. الإسراء: 81.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الإسراء، باب {وقل جاء الحق وزهق الباطل...} (الإسراء: 81).

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}[1] هذه السورة من أقصر سور القرآن الكريم، ومن أقلها ألفاظاً وآيات، فهي تشترك مع سورتي العصر والكوثر في عدد الآيات الثلاث، لكنها أطول من الكوثر وأقل من العصر في عدد الكلمات، وهي مدنية، بل من أواخر ما نزل به الوحي الأمين من سور التنزيل، وهناك من يقول إنها آخرها، فعن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُتْبَةَ، قال: (قال لي ابن عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ، وقال هَارُونُ: تدري آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ من الْقُرْآنِ، نَزَلَتْ جميعاً؟ قلت: نعم، {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} قال: صَدَقْتَ) وفي رِوَايَةِ ابن أبي شَيْبَةَ، تَعْلَمُ أَيُّ سُورَةٍ؟ ولم يَقُلْ آخِرَ)[2]، مع التنويه إلى أن الأمر محط خلاف.

ومن أسرار معاني سورة النصر دلالتها على قرب انتهاء أجله صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان عُمَرُ يُدْخِلُنِي مع أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فقال بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هذا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فقال: إنه مِمَّنْ قد عَلِمْتُمْ، قال: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قال: وما رئيته دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فقال: ما تَقُولُونَ في: {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} حتى خَتَمَ السُّورَةَ؟ فقال بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إذا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وقال بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أو لم يَقُلْ بَعْضُهُمْ شيئاً، فقال لي: يا ابن عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قلت: لَا، قال: فما تَقُولُ؟ قلت: هو أَجَلُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أَعْلَمَهُ الله له: {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنه كان تَوَّابًا} قال عُمَرُ: ما أَعْلَمُ منها إلا ما تَعْلَمُ).[3]

وتسمى سورة النصر أيضاً سورة التوديع، لما فيها من الإيماء إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.[4][5]

---

1. النصر: 1 - 3.
2. صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب منه.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه.
4. الإتقان في علوم القرآن: 1 /155.
5. أسرار التكرار في القرآن: 1 /227.

سؤال الله المغفرة:

أمر الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، في سورة النصر بتسبيحه وحمده واستغفاره، بعد أن فتح الله له مكة، فاستجاب صلى الله عليه وسلم، لأمر ربه، فما ترك صلاة بعد نزول هذه السورة الكريمة إلا قال فيها: (سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهم اغْفِرْ لي)، كما تصف أم المؤمنين عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (ما صلى النبي، صلى الله عليه وسلم، صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عليه: {إذا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} إلا يقول فيها سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهم اغْفِرْ لي).[1]

يقول ابن تيمية: وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار في هذه الحال لا يقتضى أنه لا يشرع في غيرها، أو لا يؤمر به غيره، بل يقتضى أن هذا سبب لما أمر به، وان كان مأموراً به في مواضع أخر، كما يؤمر الإنسان بالحمد والشكر على نعمه، وإن كان مأموراً بالشكر عليها، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب، وإن كان مأموراً بالتوبة من غيره، لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا، فغيره أحوج إلى هذا منه، وقد يحتاج العبد إلى هذا في غير هذه الحال، كما يحتاج إلى التوبة فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقاً.[2]

ومما يلحظه المتدبر في العمل المطلوب للنصر، وما بعده، أن الله طلب من عباده نصره لينصرهم، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[3]، وبعد النصر أمر سبحانه بتسبيحه والتوبة إليه واستغفاره، فالأمر أولاً وأخيراً، من قبل النصر، ومن بعده طاعة لله، وإنابة وبر وإحسان، سائلين الله العلي القدير نصره المؤزر لقدسنا وأقصانا، وأن يتقبل شهداءنا في عليين، ويطلق سراح أسرانا، ويغفر لنا، ويتوب علينا، كما تاب على نبيه المصطفى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة {إذا جاء نصر الله}، باب منه.
2. مجموع الفتاوى:11 /689 .
3. محمد: 7.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة
الحلقة الأولى

عن عبد اللَّهِ بن أبي أَوْفَى، قال: كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قال: (اللهم صَلِّ على آلِ فُلَانٍ، فَأَتَاهُ أبي بِصَدَقَتِهِ، فقال: اللهم صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى)[1]

أدرج الإمام البخاري هذا الحديث النبوي الشريف في صحيحه تحت بَاب: صَلَاةِ الْإِمَامِ وَدُعَائِهِ لِصَاحِبِ الصَّدَقَةِ، وَقَوْلِهِ: {خُذْ من أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بها وَصَلِّ عليهم إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لهم...}[2] يقول الإمام العيني: أي هذا باب في بيان صلاة الإمام، ودعائه لصاحب الصدقة، والمراد من الصلاة الدعاء؛ لأن معناها اللغوي ذلك، وإنما عطف لفظ الدعاء على الصلاة، لئلا يفهم أن الدعاء بلفظ الصلاة متعين، بل إذا دعي بلفظ يؤدي معنى الثناء والخير، فإنه يكفي، مثل أن يقول: آجرك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، أو يقول: اللهم اغفر له، وتقبل منه، ونحو ذلك.[3]

الصلاة على المتصدق وآله:

صلاة النبي، صلى الله عليه وسلم، على مقدم الصدقة كانت انصياعاً لأمر الله عز وجل، بأن يأخذ من المؤمنين صدقة يطهرهم بها ويزكيهم، وأن يصلي عليهم، فقال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[4]، من هنا دعا الرسول، صلى الله عليه وسلم، لآل أبي أوفى كما في الحديث أعلاه (بقوله: اللهم صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى).

وفي الصدقة المأمور بأخذها هنا، قولان: أحدهما التطوع، والآخر الزكاة.[5]

يبين الإمام العيني، أن قوله في الحديث أعلاه: (صلِّ على آل فلان) كذا في رواية

---

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة.
2. التوبة: 103.
3. عمدة القاري: 9 /94.
4. التوبة: 103.
5. عمدة القاري: 18/ 258.

الأكثرين، وفي رواية أبي ذر: (صل على فلان) وقوله: (صلِّ على آل أبي أوفى) يريد به أبا أوفى، فالمراد به ذات أبي أوفى؛ لأن الآل يذكر ويراد به ذات الشيء، كما في حديث أبي مُوسَى، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: (يا أَبَا مُوسَى؛ لقد أُوتِيتَ مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ)[1] يريد به داود، عليه السلام.

وقيل: لا يقال ذلك إلاَّ في حق الرجل الجليل القدر، كآل أبي بكر، وآل عمر، رضي الله تعالى عنهما، وقيل: آل الرجل أهله، والفرق بين الآل والأهل، أن الآل قد خص بالأشراف، فإن قلت كيف قيل: آل فرعون؟ قلت: لتصوره بصورة الأشراف: وفي الصحاح أصل آل أول، وقيل: أهل.

واحتج بالحديث المذكور من جواز الصلاة على غير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بالاستقلال، وهو قول أحمد أيضاً، وقال أبو حنيفة وأصحابه ومالك والشافعي والأكثرون: إنه لا يصلي على غير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، استقلالاً، فلا يقال: اللهم صل على آل أبي بكر، ولا على آل عمر، أو غيرهما، ولكن يصلى عليهم تبعاً، والجواب عن هذا: أن هذا حقه عليه الصلاة والسلام، له أن يعطيه لمن شاء، وليس لغيره ذلك، وفي الحديث استحباب الدعاء للمتصدق.[2]

جاء في التمهيد لابن عبد البر: أن الصلاة هاهنا الرحمة والتراحم، فغير نكير أن يجوز من كل أحد من المسلمين، بدليل الكتاب والسنة.[3]

صدقة الفطر:

أوجب الرسول، صلى الله عليه وسلم، في شهر رمضان صدقة على النفوس، يخرجها رب العائلة عن نفسه وعمن يعول من آباء وأمهات وأزواج وأبناء وبنات وخدم، فعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَرَضَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، على كل حُرٍّ، أو عَبْدٍ ذَكَرٍ أو أُنْثَى من الْمُسْلِمِينَ)[4]

وتوسعت روايات أخرى في تحديد أصناف المواد الغذائية التي تخرج منها صدقة

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن.
2. عمدة القاري: 9 /95.
3. التمهيد لابن عبد البر: 17 /305.
4. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على العبد وغيره من المسلمين.

الفطر، فذكرت الطعام، والأقط، والزبيب، فعن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قال: (كنا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا من طَعَامٍ، أو صَاعًا من شَعِيرٍ، أو صَاعًا من تَمْرٍ، أو صَاعًا من أَقِطٍ، أو صَاعًا من زَبِيبٍ).[1]

وتتبنى دار الإفتاء الفلسطينية القول بجواز إخراج القيمة في صدقة الفطر، تيسيراً على مخرجها ومتلقيها، وقدر الحد الأدنى لقيمتها لعام 1443هـ/ 2022م بـ(9) شواقل، مع التنويه إلى أنها تجب على الفقير والغني، فمن ملك قوته وقوت عياله يوم العيد، وجبت عليه صدقة الفطر، وبالتالي؛ فإن في الأخذ بحدها الأدنى تيسيراً على الفقراء وأرباب الأسر المتعففة، مع إبقاء مجال التوسع في الزيادة عن هذه القيمة للميسورين الذين ينبغي أن لا يقتصروا على هذا الحد في الإنفاق، وهم يعلمون أن الله يضاعف ثواب الصدقات إلى سبعمائة ضعف، مصداقاً لقوله عز وجل: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[2]

وبالنسبة إلى وقت إخراج صدقة الفطر، فيلزم إخراجها في رمضان قبل صلاة عيد الفطر، فعن ابن عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَمَرَ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قبل خُرُوجِ الناس إلى الصَّلَاةِ)[3]، واختلف في حكم التعجيل في إخراجها قبل هذا الوقت، ونرجح جواز إخراجها طيلة أيام شهر رمضان المبارك.

وتخرج للفقراء من غير من تجب نفقتهم على مخرجها، فلا تحل لغني، ولا لأصول مخرجها ولا فروعه، ولا تخرج للمساجد والمصالح العامة.

راجين الله أن يوفقنا لإخراج صدقاتنا على الوجه المشروع، وأن يتقبلها منا، وآملين أن ييسر سبحانه متابعة الحديث المجمل في الحلقة القادمة عن الحق المعلوم وغير المعلوم في الأموال، حسب ما دل عليه هدي الله في القرآن الكريم، وسنة نبيه محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر صاع من طعام.
2. البقرة: 261.
3. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة - الحلقة الثانية والأخيرة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (مـا مـن يَـوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَـادُ فيـه إلا مَلَـكَانِ يَنْـزِلَانِ، فيقـول أَحَدُهُـمَا: اللهـم أَعْـطِ مُنْفِقًـا خَلَفًـا، وَيَقُـولُ الْآخَـرُ: اللهـم أَعْـطِ مُمْسِـكًا تَلَفًـا)(*)

تعرضـت الحلقـة السـابقة لمسـألة صَـلَاةِ الْإِمَـامِ وَدُعَائِـهِ لِصَاحِـبِ الصَّدَقَـةِ، مـع بيـان أن المـراد مـن الصـلاة الدعـاء؛ وإنمـا عطـف لفـظ الدعـاء عـلى الصـلاة لئـلا يفهـم أن الدعـاء بلفـظ الصـلاة متعـين، وصـلاة النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـلى مقـدم الصدقـة كانـت انصياعـاً لأمـر اللـه عـز وجـل، بـأن يأخـذ مـن المؤمنـين صدقـة يطهرهـم بهـا، ويزكيهـم، وأن يصـلي عليهـم، وفي الصدقـة المأمـور بأخذهـا هنـا، قـولان: أحدهـما التطـوع، والآخـر الـزكاة. وقولـه: (صـلِّ عـلى آل أبي أوفى) يريـد بـه أبـا أوفى، وصدقـة الفطـر أوجبهـا الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في شـهر رمضـان، عـلى أربـاب العائـلات عـن أنفسـهم، وعمـن يعولـون مـن آبـاء وأمهـات، وأزواج، وأبنـاء، وبنـات، وخـدم، وتخـرج مـن أصنـاف غذائيـة محـددة في الأحاديـث الصحيحـة، وتبنـت دار الإفتـاء الفلسـطينية جـواز إخراجهـا بالقيمـة، وينبغـي أن تخـرج قبـل الانتهـاء مـن صـلاة عيـد الفطـر، للفقـراء والمسـاكين، ممـن ليـس لهـم حـق النفقـة عـلى مخرجهـا.

زكاة المال:

الـزكاة تعنـي في اللغـة الطهـارة والنـماء، وهـي ركـن مـن أركان الإسـلام، فرضهـا اللـه عـلى مـن يملـك نصابهـا بـشروط محـددة، تخـص المـال وصاحبـه، ومـن تخـرج إليـه، واللـه تعـالى

* صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى...}(الليل: 5 - 10).

أثنى على من يخرج من ماله الحق المعلوم، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ}[1]

يقول صاحب أضواء البيان: الحق المعلوم لا يكون إلا في المفروض، وهو قول أكثر المفسرين، ولا يمنع أن السورة مكية، فقد يكون أصل المشروعية بمكة، ويأتي التفصيل بالمدينة، وهو في السنة الثانية من الهجرة، والحق المعلوم؛ أي القدر المخرج، ولم تأت آية تفصل هذا الإجمال إلا آية: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}[2]، وقد بينت السنة هذا الإجمال.[3]

والزكاة تجب في الذهب، والفضة، والنقود المالية، والأنعام، والزروع والثمار، وعروض التجارة، وذلك بشروط وضوابط مفصلة في مراجع الفقه ومصادره والكتب ذات العلاقة، والمجال هنا لا يتسع للخوض فيها.

وحصر سبحانه مصارف الزكاة بثمانية أصناف، شملهم قوله جل شأنه: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[4]

وعيد المتخلفين عن أداء الزكاة:

توعد سبحانه الذين يتخلفون عن أداء الزكاة بعذاب أليم يوم القيامة، ففي صحيح البخاري بَاب إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}[5]

وفيه عن خَالِدِ بن أَسْلَمَ، قال: (خَرَجْنَا مع عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، فقال

---

1. المعارج: 24.
2. الحشر: 7.
3. أضواء البيان: 8 /270.
4. التوبة: 60.
5. التوبة: 34 - 35.

أَعْرَابِيٌّ: أَخْبِرْنِي عن قَوْلِ اللَّهِ: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللَّهِ} قال ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: من كَنَزَهَا فلم يُؤَدِّ زَكَاتَهَا، فَوَيْلٌ له، إنما كان هذا قبل أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فلما أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا الله طُهْرًا لِلْأَمْوَالِ).[1]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من آتَاهُ الله مَالًا فلم يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ له يوم الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ له زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يوم الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بلهزمتيه - يَعْنِي بشدقيه- ثُمَّ يقول: أنا مَالُكَ أنا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: {ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ... })[2]

النفقات والصدقات غير المحددة:

الإنفاق في سبيل الله منه الواجب كالزكاة، وصدقة الفطر، ونفقة المرء على قضاء حاجات من يعول، ومنه التطوع، الذي لا ينحصر بوقت ولا مكان محددين، وكلما كانت حاجة المنفق عليه ملحة، كان جزاء النفقة أعظم، وفي حديث سالف الذكر، تشجيع للإنفاق في سبيل الله بأنواعه كلها.

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (ما من يوم) يعني ليس من يوم، وقوله: (يصبح العباد فيه) صفة يوم، وقوله: (إلاَّ ملكان) يعني ليس يوم موصوف بهذا الوصف، ينزل فيه أحد إلاَّ ملكان، يقولان: كيت وكيت، فحذف المستثنى منه، ودل عليه بوصف الملكان ينزلان، وقوله: (خلفاً) بفتح اللام؛ أي عوضاً، يقال: أخلف الله عليك خلفاً؛ أي عوضاً؛ أي أبدلك بما ذهب منك، قوله: (أعطِ ممسكا تلفاً) التعبير بالعطية هنا من قبيل المشاكلة؛ لأن التلف ليس بعطية.

ومما يستفاد من هذا الحديث أنه موافق لقوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ...} [3]، ولقوله: (يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ)[4]، وهذا يعم الواجب والمندوب،

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب ما أدي زكاته فليس بكنز.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.
3. سبأ: 39.
4. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف.

وفيه أن الممسك يستحق تلف ماله، ويراد به الإمساك عن الواجبات دون المندوبات، فإنه قد لا يستحق هذا الدعاء، اللهم إلاَّ أن يغلب عليه البخل بها، وإن قلت في نفسها، كالحبة واللقمة ونحوهم، وفيه الحض على الإنفاق في الواجبات؛ كالنفقة على الأهل، وصلة الرحم، ويدخل فيه صدقة التطوع والفرض.[1]

وعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَثَلُ البَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ من حَدِيدٍ من ثُدِيِّهِمَا إلى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَتْ، أو وَفَرَتْ على جِلْدِهِ، حتى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شيئاً، إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا ولا تَتَّسِعُ)[2]

وفقنا الله في أمرنا كله، للعمل بكتابه وسنة نبيه محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. عمدة القاري: 8 /307.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يخبر عن مباهاة الله بأهل عرفة

عـن عَائِشَـة، أن رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (مـا مـن يَـوْمٍ أَكْـثَرَ مـن أَنْ يُعْتِـقَ اللـه فيـه عَبْـدًا مـن النَّـارِ مـن يَـوْمِ عَرَفَـةَ، وَإِنَّـهُ لَيَدْنُـو، ثُـمَّ يُبَاهِـي بِهِـم الْمَلَائِكَـةَ، فيقـول: مـا أَرَادَ هَـؤُلَاءِ؟)[1]

يـوم عرفـة يكـون في التاسـع مـن ذي الحجـة كل عـام، ويليـه مبـاشرة يـوم النحـر وعيـد الأضحـى المبـارك، أي في العـاشر مـن ذي الحجـة، والوقـوف بعرفـة بالنسـبة إلى الحـاج ركـن مـن أركان الحـج، يبطـل الحـج دونـه، وليـوم عرفـة فضائـل للحجـاج وغيرهـم مـن المسـلمين، منهـا مـا يبينـه الحديـث الشريـف أعـلاه.

يوم عرفة وعتق العباد من النار:

يخـبر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في حديثـه المثبـت نصـه أعـلاه، عـن عتـق اللـه عبـاده في يـوم عرفـة مـن النـار، فهـو اليـوم الأكـثر شـهوداً في العـام لعتـق الخلـق مـن النـار، يقـول النـووي: هـذا الحديـث ظاهـر الدلالـة في فضـل يـوم عرفـة، وهـو كذلـك، ولـو قـال رجـل: امـرأتي طالـق في أفضـل الأيـام، فلأصحابنـا وجهـان: أحدهـما تطلـق يـوم الجمعـة، وأصحهـما يـوم عرفـة، للحديـث المذكـور أعـلاه، ويتـأول حديـث يـوم الجمعـة عـلى أنـه أفضـل أيـام الأسـبوع.[2] والحديـث المشـار إليـه في قـول النـووي عـن فضـل يـوم الجمعـة، مـروي عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (خَـيْرُ يَـوْمٍ طَلَعَـتْ عليـه

1. صحيح مسلم، كتاب الحج ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 9/ 117.

الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ منها، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا في يَوْمِ الْجُمُعَةِ)[1]

المعنى الإجمالي لحديث المباهاة بالحجيج يوم عرفة:

قال الطيبي، رحمه الله: (ما) بمعنى ليس، وتقديره ما من يوم أكثر إعتاقاً فيه الله عبداً من النار من يوم عرفة، (وأنه) أي سبحانه (ليدنو) أي يقرب منهم بفضله ورحمته (ثم يباهي بهم) أي بالحجاج (الملائكة)، قال بعضهم: أي يظهر على الملائكة فضل الحجاج وشرفهم، أو يحلهم من قربه وكرامته محل الشيء المباهى به، والمباهاة المفاخرة.[2]

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم: انظروا إلى عبادي، جاؤوني شعثاً غبراً)[3]

جاء في فيض القدير، إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة؛ أي الواقفين بها، ثم بين تلك المباهاة بقوله: (انظروا إلى عبادي) أي تأملوا حالهم وهيأتهم، جاؤوا إلى بيتي إعظاماً لي، وتقرباً لما يقربهم مني (شعثاً) أي متغيرو الأبدان والشعور والملابس؛ لقلة تعهدهم بالإدهان والإصلاح، والشعث الوسخ في بدن أو شعر، (غبراً) أي من غير استحداد ولا تنظف، قد ركبهم غبار الطريق، وفيه أفضلية عرفة، قال القاضي: وإنما سمي الموقف عرفة؛ لأنه نعت لإبراهيم، عليه السلام، فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل كان يدور في المشاعر، فلما رآه قال: قد عرفت، أو لأن آدم وحواء، عليهما السلام، التقيا فيه، فتعارفا، أو لأن الناس يتعارفون فيه.[4]

1. صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة.
2. مرقاة المفاتيح: 5 /1800.
3. المستدرك على الصحيحين: 1/ 636، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
4. فيض القدير: 2/ 279 - 280.

الإفاضة بسكينة من عرفة إلى مزدلفة:

وقوف الحاج بعرفة، يعني مكوثه في حدود جبل عرفة في الوقت المحدد لذلك شرعاً، وبعده تكون الإفاضة إلى مزدلفة، ومن ثم يتم الذهاب إلى منى للمبيت فيها، ورمي الجمار، ونحر أو ذبح الهدي، قال سبحانه:{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ}[1]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ (دَفَعَ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم عَرَفَةَ، فَسَمِعَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا، وَضَرْبًا، وَصَوْتًا لِلْإِبِلِ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ، وقال: أَيُّهَا الناس، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فإن الْبِرَّ ليس بِالْإِيضَاعِ - {أَوْضَعُوا} أَسْرَعُوا {خِلَالَكُمْ} من التَّخَلُّلِ بَيْنَكُمْ {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا}){2}

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (دفع مع النبي، صلى الله عليه وسلم) أي انصرف معه من عرفة يوم عرفة، وقوله: (زجراً) هو الصياح لحث الإبل، وقوله: (وضرباً) وفي رواية: (وصوتاً) أيضاً بعد (ضرباً)، وكأنه تصحيف من (ضرباً)، فعطف صوتاً عليه.

وقوله: (عليكم بالسكينة) إغراء؛ أي لازموا السكينة في السير، يعني الرفق، وعدم المزاحمة، وعلل ذلك بقوله: (فإن البر) أي الخير (ليس بالإيضاع) أي السير السريع، من أوضع إذا سار سيراً عنيفاً، ويقال: هو سير مثل الخبب، وقال المهلب: إنما نهاهم عن الإسراع إبقاء عليهم، لئلا يجحفوا بأنفسهم مع بعد المسافة.

وقوله: (أَوْضَعُوا أَسْرَعُوا خِلَالَكُمْ مِنَ التَّخَلُّلِ بَيْنَكُمْ وفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا بَيْنَهُمَا) هو من

---

1. البقرة: 198.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بالسكينة عند الإفاضة...

كلام البخاري، أشار به إلى تفسير الإيضاع في الحديث؛ لأنه مصدر من أوضع يوضع إضاعاً، إذا أسرع في السير، ولما كانت لفظة (أوضعوا) مذكورة في القرآن، في سورة براءة، وهو قوله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}[1] الآية، والمعنى: ما زادوكم إلاَّ شيئاً خبالاً، والخبال الشر والفساد، ولأوضعوا خلالكم، ولسعوا بينكم بالتضريب، وهو الإغراء بين القوم، وإفساد ذات البين.

وقال الزمخشري: والمعنى (ولأوضعوا) أي أسرعوا ركائبهم؛ لأن الراكب أسرع من الماشي.[2]

فهنيئاً لمن يسر له الله الوقوف بعرفة، لينال هذا الشرف والفضل، المتوج بمباهاة الله بالحجيج حسب ما أخبر نبينا محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التوبة: 47.
2. عمدة القاري: 10/ 10.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يُشرِّع أعمالاً ونسكاً ليومي عرفة والنحر

عن محمد بن أبي بَكْرٍ الثَّقَفِيُّ، قال: (سَأَلْتُ أنس بن مالك وَنَحْنُ غَادِيَانِ من مِنًى إلى عَرَفَاتٍ عن التَّلْبِيَةِ، كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ مع النبي، صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان يُلَبِّي الْمُلَبِّي لَا يُنْكَرُ عليه، وَيُكَبِّرُ الْمُكَبِّرُ فلا يُنْكَرُ عليه)[1]، وفي رواية لمسلم عنه، بدلاً من عبارة (يلبي الملبي)، قال: (كان يُهِلُّ الْمُهِلُّ مِنَّا).[2]

مناسك الحج يستند تشريعها إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، فعن جابر، قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه).[3]

ومن التشريعات بالخصوص التلبية يوم عرفة، وصومه لغير الحاج، والتقرب إلى الله بنحر أو ذبح الهدي والأضاحي؛ بدءاً من العاشر لذي الحجة، ثم أيام التشريق الثلاثة التي تليه.

التلبية والتهليل والتكبير يوم عرفة:

تأسياً بالنبي، صلى الله عليه وسلم، يلبي الحاج يوم عرفة، مردداً عبارتها التي شرع النطق بها مذ أحرم، وانطلق بأعمال الحج، فيقول: (لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لك وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لك)[4]

ويشرع التكبير إلى جانب التهليل يوم عرفة، فعن عبد اللَّهِ بن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، عن

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة.
2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات في يوم عرفة.
3. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً...
4. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب التلبية.

أبيه، قال: (كنا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، في غَدَاةِ عَرَفَةَ، فَمِنَّا الْمُكَبِّرُ، وَمِنَّا الْمُهَلِّلُ، فَأَمَّا نَحْنُ فَنُكَبِّرُ، قال: قلت: والله لَعَجَبًا مِنْكُمْ، كَيْفَ لم تَقُولُوا له مَاذَا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَصْنَعُ)[1]

فهذان الحديثان يثبتان تشريع التهليل والتكبير أيام الحج، بإقرار النبي، صلى الله عليه وسلم، دون أن ينكر على أي من المهللين أو المكبرين.

ويستمر الحاج بالتلبية حتى يرمي جمرة العقبة الكبرى، تأسياً بفعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، (أَنَّ أُسَامَةَ، رضي الله عنه، كان رِدْفَ النبي، صلى الله عليه وسلم، من عَرَفَةَ إلى الْمُزْدَلِفَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ الْفَضْلَ من الْمُزْدَلِفَةِ إلى مِنًى، قال: فَكِلَاهُمَا قال: لم يَزَلِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يُلَبِّي حتى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ).[2]

صيام يوم عرفة:

يسن لغير الحاج أن يصوم يوم عرفة، لفضل ذلك وثوابه العظيم، فعن أبي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فقال: (يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ)[3]

ويجيب صاحب (سبل السلام) على استشكال تكفير ما لم يقع، وهو ذنب السنة الآتية، بأن المراد أنه يوفق فيها لعدم الإتيان بذنب، وسماه تكفيراً لمناسبة الماضية، أو أنه إن أوقع فيها ذنباً وفق للإتيان بما يكفره.[4]

وبرر بعض العلماء تشريع صيام يوم عرفة لغير الحاج، بأن يوم عرفة مخصوص

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات في يوم عرفة.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الركوب والارتداف في الحج.
3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...
4. سبل السلام: 2/ 166.

بمعنى يتقرب به، وهو الوقوف بعرفة لأهل الحج، دون غيرهم من الناس، فصار لهم بذلك عيداً، فلم يصلح لهم صومه، بخلاف غيرهم ممن ليس له بعيد.[1]

وعن أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ، (أَنَّ نَاسًا اخْتَلَفُوا عِنْدَهَا يوم عَرَفَةَ في صَوْمِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال بَعْضُهُمْ: هو صَائِمٌ، وقال بَعْضُهُمْ: ليس بِصَائِمٍ، فَأَرْسَلْتُ إليه بِقَدَحِ لَبَنٍ وهو وَاقِفٌ على بَعِيرِهِ فَشَرِبَهُ)[2] واستنبط بعض العلماء استحباب الفطر للواقف بعرفة من هذا الحديث الشريف.[3]

التقرب إلى الله بالهدي:

يجب الهدي شرعاً على من حج متمتعاً أو قارناً، وعلى من أحصر عن الحج بعد الإحرام، عملاً بقوله تعالى: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُءوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[4]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، توسع في حجه بالتقرب إلى الله ليس بالهدي الواجب فحسب، بل بمائة بدنة، فعن عَلِي، رضي الله عنه، قال: (أَهْدَى النبي، صلى الله عليه وسلم، مائَةَ بَدَنَةٍ، فَأَمَرَنِي بِلُحُومِهَا فَقَسَمْتُهَا، ثُمَّ أَمَرَنِي بِجِلَالِهَا فَقَسَمْتُهَا، ثُمَّ بِجُلُودِهَا فَقَسَمْتها)[5]

1. معتصر المختصر: 1 /152.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الوقوف على الدابة بعرفة.
3. عمدة القاري: 11 /108.
4. البقرة: 196.
5. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب يتصدق بجلال البدن.

وبالنسبة إلى الهدي الواجب على المحصر، كان ابن عُمَر، رضي الله عنهما، يقول: (أَلَيْسَ حَسْبُكُمْ سُنَّةَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إن حُبِسَ أحدكم عن الْحَجِّ طَافَ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ حَلَّ من كل شَيْءٍ، حتى يَحُجَّ عَامًا قَابِلًا، فَيُهْدِي أو يَصُومُ إن لم يَجِدْ هَدْيًا)[1]

حضور النساء صلاة العيد رجاء بركته:

من الأمور التي شرعها النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم العيد سواء الأضحى أم الفطر، خروج النساء لصلاة العيد، فعن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (كنا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يوم الْعِيدِ، حتى نُخْرِجَ الْبِكْرَ من خِدْرِهَا، حتى نُخْرِجَ الْحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ الناس، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذلك الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ)[2]

فهذه وقفة عند بعض الأحكام الشرعية الخاصة بأعمال يومي التاسع والعاشر من ذي الحجة، أي يوم عرفة والذي يليه، سائلين الله العلي القدير، أن ييسر لحجاجنا الحج المبرور، والسعي المشكور، وأن يغفر الذنوب والخطايا لنا ولهم، وللمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المحصر، باب الإحصار في الحج.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى، وإذا غدا إلى عرفة.

الفصل الثالث

سيرة وشمائل

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الأولى	68
.2	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثانية	71
.3	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثالثة	74
.4	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الرابعة	77
.5	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الخامسة	80
.6	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة السادسة	83
.7	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة السابعة	86
.8	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثامنة والأخيرة	89
.9	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الأولى	92
.10	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الثانية	95
.11	يبايع النساء - الحلقة الأولى	98
.12	يبايع النساء - الحلقة الثانية والأخيرة	102
.13	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الثالثة والأخيرة	105
.14	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الأولى	108
.15	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الثانية	111
.16	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الثالثة والأخيرة	114

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الأولى

عـن عُمَـرَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (الْأَعْـمَالُ بِالنِّيَّـةِ، وَلِـكُلِّ امْـرِئٍ مـا نَـوَى، فَمَـنْ كانـت هِجْرَتُـهُ إلى اللَّـهِ وَرَسُـولِهِ، فَهِجْرَتُـهُ إلى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ، وَمَـنْ كانـت هِجْرَتُـهُ لدُنْيَـا يُصِيبُهَـا، أو امْـرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَـا، فَهِجْرَتُـهُ إلى مـا هَاجَـرَ إليـه)[1]

جـاء هـذا الحديـث النبـوي الشريـف في صحيـح البخـاري تحـت بَـاب مـا جـاء أن الْأَعْـمَالَ بِالنِّيَّـةِ وَالْحِسْـبَةِ، وَلِـكُلِّ امْـرِئٍ مـا نَـوَى، فَدَخَـلَ فيـه الْإِيمَـانُ وَالْوُضُـوءُ وَالصَّـلَاةُ وَالـزَّكَاةُ وَالْحَـجُّ وَالصَّـوْمُ وَالْأَحْـكَامُ، وقـال اللـه تَعَـالَى: {قُـلْ كُلٌّ يَعْمَـلُ عـلى شَـاكِلَتِهِ} عـلى نِيَّتِـهِ، نَفَقَـةُ الرَّجُـلِ عـلى أَهْلِـهِ يَحْتَسِـبُهَا صَدَقَـةٌ، وقـال النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (وَلَكِـنْ جِهَـادٌ وَنِيَّـةٌ) ومـن أحاديـث هـذا البـاب: عـن أبي مَسْـعُودٍ، عـن النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (إذا أَنْفَـقَ الرَّجُـلُ عـلى أَهْلِـهِ يَحْتَسِـبُهَا، فَهُـوَ لـه صَدَقَـةٌ)[2]

قـال القرطبـي: أن الأجـر في الإنفـاق إنمـا يحصـل بقصـد القربـة، سـواء كانـت واجبـة أو مباحـة، وأن مـن لم يقصـد القربـة لم يؤجـر، لكـن تـبرأ ذمتـه مـن النفقـة الواجبـة؛ لأنهـا معقولـة المعنـى، وأطلـق الصدقـة عـلى النفقـة مجـازاً، والمـراد بهـا الأجـر.[3]

وعـن سَـعْدِ بـن أبي وَقَّـاصٍ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قال:(إِنَّـكَ لَـنْ تُنْفِـقَ نَفَقَـةً تَبْتَغِـي بهـا وَجْـهَ اللَّـهِ إلا أُجِـرْتَ عليهـا، حتـى مـا تَجْعَـلُ في فـم امْرَأَتِـكَ)[4]

تطبيقات لاشتراط النية والاحتساب:

الحديثـان الشريفـان المذكـوران آنفـاً عـن ابـن مسـعود وعـن سـعد بـن أبي وقـاص، رضي اللـه عنهـما، يمثـلان تطبيقـين لمبـدأ الأعـمال بالنيـة، فربطـت فيهـما المثوبـة عـلى الإنفـاق

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب ما جاء أن الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى...
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب ما جاء أن الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى...
3. فتح الباري: 1/ 136.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، بَاب ما جاء أن الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى...

بالاحتساب، الذي اشترط في نصوص شرعية عدة للمثوبة على أعمال تعبدية وصالحة، فصيام، رمضان وقيامه وقيام ليلة القدر في لياليه، اشترط لجزاء العابد فيها احتسابه الصيام والقيام لله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[1]

وفي صحيح البخاري، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[3]

وفي صحيح البخاري أيضاً: بَاب من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَنِيَّةً، وَقَالَتْ عَائِشَةُ، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، (يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِم).[4]

وربط جزاء اتباع الجنائز والصلاة على الأموات بالاحتساب أيضاً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وكان معه حتى يُصلى عليها، وَيَفْرُغَ من دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ من الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ؛ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صلى عليها، ثُمَّ رَجَعَ قبل أَنْ تُدْفَنَ، فإنه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ).[5]

والأدلة على اشتراط الاحتساب للمثوبة على العبادات وصالح الأعمال والأقوال كثيرة، وتتعلق بموضوعات مختلفة، منها الهجرة، والجهاد، والإنفاق، وعموم الشعائر، والعبادات، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وإصلاح ذات البين. يقول ابن حجر: وقد عرف من القواعد الشرعية أن الثواب لا يترتب إلا على النية، فلا بد من قيد الاحتساب.[6]

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.
5. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان.
6. فتح الباري: 3 /119.

أهمية حديث: (إنما الأعمال بالنية):

الحديث الشريف المثبت نصه في صدر هذه الحلقة، مشهور عن الصحابي الجليل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو من الأحاديث التي يدور عليها مدار الدين، ولأهمية هذا الحديث افتتح به الإمام البخاري صحيحه، يقول الإمام النووي: أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده وصحته، قال الشافعي وآخرون: هو ثلث الإسلام، وقال الشافعي: يدخل في سبعين باباً من الفقه، وقال آخرون: هو ربع الإسلام، وقال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: ينبغي لمن صنف كتاباً أن يبدأ فيه بهذا الحديث، تنبيهاً للطالب على تصحيح النية، ونقل الخطابي هذا عن الأئمة مطلقاً، وقد فعل ذلك البخاري وغيره فابتدؤا به قبل كل شيء، وذكره البخاري في سبعة مواضع من كتابه.

قال الحفاظ: ولم يصح هذا الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا من رواية عمر بن الخطاب، ولا عن عمر إلا من رواية علقمة بن وقاص، ولا عن علقمة إلا من رواية محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن محمد إلا من رواية يحيى بن سعيد الأنصاري، وعن يحيى انتشر، فرواه عنه أكثر من مائتي إنسان، أكثرهم أئمة، ولهذا قال الأئمة: ليس متواتراً، وان كان مشهوراً عند الخاصة والعامة؛ لأنه فقد شرط التواتر في أوله، وفيه طرفة من طرف الإسناد، فإنه رواه ثلاثة تابعيون بعضهم عن بعض، يحيى ومحمد وعلقمة.[1]

ويروى عن ابن مهدي الحافظ قوله: لو صنفت كتاباً لبدأت في كل باب منه بهذا الحديث.[2]

فهذه توطئة مجملة عسى أن ييسر الله متابعتها بمزيد من التفصيل والوقفات عند ضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب المروي عن نبينا محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 53 - 55.
2. عمدة القاري: 1 /22.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الثانية

عن عَلْقَمَة بن وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، يقول: سمعت عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، على الْمِنْبَرِ، قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنما الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).(*)

وقفت الحلقة السابقة عند تسمية باب في صحيح البخاري بـ: (ما جاء أن الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى)، وذكرت فيها تطبيقات تضمنتها الأدلة الشرعية لاشتراط النية والاحتساب، ومن ذلك ربط المثوبة على الإنفاق، وعلى أعمال تعبدية وصالحة، بالاحتساب، فصيام رمضان وقيامه، وقيام ليلة القدر في لياليه، اشترط لجزاء العابد فيها احتسابه الصيام والقيام لله، والإنفاق والتصدق، واتباع الجنائز، والصلاة على الأموات، ربطت المثوبة على ذلك بالاحتساب أيضاً، ولأهمية حديث: (إنما الأعمال بالنية) افتتح الإمام البخاري صحيحه به، يقول الإمام النووي: أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده وصحته، وقال الشافعي وآخرون: هو ثلث الإسلام، وأنه يدخل في سبعين باباً من الفقه، ولم يصح هذا الحديث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا من رواية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

إنما الأعمال بالنيات:

الرواية الصحيحة المثبت نصها أعلاه تختلف عن سابقتها، في جمع لفظ النية، فالأولى كانت (بالنية) وهذه (بالنيات)، والروايتان صحيحتان.

قال جماهير العلماء من أهل العربية والأصول وغيرهم: لفظة (إنما) - في حديث إنما الأعمال بالنية-موضوعة للحصر، تثبت المذكور، وتنفي ما سواه، فتقدير هذا الحديث:

* صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

أن الأعمال تحسب بنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية، وفيه دليل على أن الطهارة، وهي الوضوء والغسل والتيمم، لا تصح إلا بالنية، وكذلك الصلاة والزكاة والصوم والحج والاعتكاف وسائر العبادات، وأما إزالة النجاسة، فالمشهور عندنا أنها لا تفتقر إلى نية، لأنها من باب التروك، والترك لا يحتاج إلى نية، وقد نقلوا الإجماع فيها، وشذ بعض أصحابنا فأوجبها، وهو باطل، وتدخل النية في الطلاق والعتاق والقذف، ومعنى دخولها أنها إذا قارنت كناية صارت كالصريح، وإن أتى بصريح طلاق ونوى طلقتين أو ثلاثاً وقع ما نوى، وإن نوى بصريح غير مقتضاه، دين فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يقبل منه في الظاهر.

قوله صلى الله عليه وسلم: (وإنما لامرئ ما نوى) قالوا: فائدة ذكره بعد إنما الأعمال بالنية، بيان أن تعيين المنوي شرط، فلو كان على إنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة، بل يشترط أن ينوى كونها ظهراً أو غيرها، ولولا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين، أو أوهم ذلك.[1]

شرط الاحتساب لقبول الهجرة من صاحبها ومثوبته عليها:

يقول ابن حجر العسقلاني: الأعمال الشرعية معتبرة بالنية والحسبة، والمراد بالحسبة طلب الثواب.[2]

وقوله صلى الله عليه وسلم: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله) معناه من قصد بهجرته وجه الله، وقع أجره على الله، ومن قصد بها دنيا أو امرأة فهي حظه، ولا نصيب له في الآخرة، بسبب هذه الهجرة، وأصل الهجرة الترك، والمراد هنا ترك الوطن، وذكر المرأة مع الدنيا يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه جاء أن سبب هذا الحديث أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة، يقال لها أم قيس، فقيل له: (مهاجر أم قيس).

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 13 /53 - 55.
2. فتح الباري: 1/ 135.

والثاني: أنه للتنبيه إلى زيادة التحذير من ذلك، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، تنبيهاً إلى مزيته، والله أعلم.[1]

الهجرة في سبيل الله:

تماشياً مع شرط قصد رضا الله وطلب مثوبته لقبول الهجرة من المهاجر، حسب المبين في حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فإن الله جلَّ في علاه قيّد الهجرة التي تصح موالاة أصحابها، بأن تكون في سبيل الله، فقال عز وجل: {...فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ الله...}[2]، يقول أبو السعود في تفسيره: نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين ولياً واحداً منهم؛ أي إذا كان حالهم ما ذكر من ودادة كفركم، فلا توالوهم حتى يهاجروا في سبيل الله؛ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، لا لغرض من أغراض الدنيا.[3]

ويقول البغوي في تفسيره: وهجرة المؤمنين هي الخروج في سبيل الله مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صابرين محتسبين، وفي هذه الآية منع موالاة المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا في سبيل الله.[4]

فيجب أن يكون الدافع إلى الهجرة هو تنفيذ أمر الله، وابتغاء رضاه سبحانه، لا لغرض من أغراض الدنيا.

وأصل السبيل الطريق، واستعمل كثيراً في الطريق الموصلة إليه تعالى، وهي امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.[5]

عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد من التفصيل والوقفات لضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب المروي عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 13/ 55.
2. النساء: 89.
3. تفسير أبي السعود: 2 /213.
4. تفسير البغوي: 1 /460.
5. روح المعاني: 5 /109.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الثالثة

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[1]

أشارت الحلقة السابقة إلى جمع لفظ النية في بعض روايات حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقيل (بالنيات) وتم إفراده في روايات أخرى، والروايتان صحيحتان، ولفظة (إنما) فيه تفيد الحصر، تثبت المذكور، وتنفي ما سواه، فتقدير هذا الحديث: أن الأعمال تحسب بنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية، والمراد بالحسبة طلب الثواب.

وتطبيق هذه القاعدة على فعل الهجرة أن من قصد بهجرته وجه الله، وقع أجره على الله، ومن قصد بها دنيا أو امرأة فهي حظه، ولا نصيب له في الآخرة بسبب هذه الهجرة، وأصل الهجرة الترك، والمراد هنا ترك الوطن.

ويبين النووي أن ذكر المرأة مع الدنيا يحتمل وجهين: أحدهما: أنه جاء أن سبب هذا الحديث أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة، يقال لها أم قيس، فقيل له: (مهاجر أم قيس) والثاني: أنه للتنبيه إلى زيادة التحذير من ذلك، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام، تنبيهاً إلى مزيته، والله أعلم.

وتماشياً مع شرط قصد رضا الله وطلب مثوبته لقبول الهجرة من المهاجر، فإن الله جل في علاه قيد الهجرة التي تصح موالاة أصحابها بأن تكون في سبيل الله، فقال عز وجل: {...فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ الله...}[2]، أي فلا توالوهم حتى يؤمنوا، ويحققوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، لا لغرض من أغراض الدنيا.

---

1. الحشر: 8.
2. النساء: 89.

تشارك المهاجرين والأنصار في الدوافع والغايات والجزاء:

لما وقف صاحب أضواء البيان عند الآية الثامنة من سورة الحشر والمثبت نصها أعلاه، قال: في هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين في دوافع الهجرة، أنهم {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} وغايتها، وهي:{وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه}، والحكم لهم بأنهم: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، ومنطوق هذه الأوصاف يدل بمفهومه أنه خاص بالمهاجرين، مع أنه جاءت نصوص أخرى تدل على مشاركة الأنصار لهم فيه، منها قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ...}.[1] وقال سبحانه:{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}.[2]

فذكر المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس، وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر، ووصف الفريقين معاً بولاية بعضهم بعضاً، وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً}؛ أي الصادقون في إيمانهم، فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة، وفي صدق الإيمان.[3]

الثناء على الذين يبتغون فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً:

الآية القرآنية الكريمة المثبت نصها في صدر هذه الحلقة، تثني على المهاجرين الذين لبوا النداء للهجرة بحال يَبْتَغُونَ فيه فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً، وختم الله الثناء على خصائص المهاجرين المذكورة في هذه الآية الكريمة بالشهادة لهم بقوله سبحانه: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، والرازي يبين أن هذا التعقيب يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا، وتحملوا شدائدها لأجل الدين، ظهر صدقهم في دينهم.[4] فالله تعالى بين حال الفقراء المستحقين لمال الفيء، أنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، أي خرجوا من ديارهم، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، {وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}؛ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم،

1. الأنفال: 72.
2. الأنفال: 74.
3. أضواء البيان: 8/ 42.
4. التفسير الكبير: 29/ 249.

وهـؤلاء هـم سـادات المهاجريـن.[1]

وقـد نـوه سـبحانه في مواضـع قرآنيـة كريمـة أخـرى بدافـع ابتغـاء رضـوان اللـه في فعـل أمـور أخـرى غـير الهجـرة، منهـا إبـراز دافـع ابتغـاء فضـل اللـه ورضوانـه مـن قبـل المتقيديـن بأحـكام الإحـرام عنـد قصـد بيـت اللـه الحـرام للحـج أو العمـرة، فقـال سـبحانه: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ لاَ تُحِلُّـواْ شَـعَآئِرَ اللّـهِ وَلاَ الشَّـهْرَ الْحَـرَامَ وَلاَ الْهَـدْيَ وَلاَ الْقَلآئِـدَ وَلا آمِّـينَ الْبَيْـتَ الْحَـرَامَ يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مـن ربِّهِـمْ وَرِضْوَانـاً...}.[2]

قولـه سـبحانه:{يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مـن ربِّهِـمْ وَرِضْوَانـاً} قـال فيـه جمهـور المفسريـن: معنـاه يبتغـون الفضـل مـن الأربـاح في التجـارة، ويبتغـون مـع ذلـك رضوانـه في ظنهـم وطمعهـم، وهـذه الآيـة نزلـت عـام الفتـح.[3]

يبـين الطـبري أن معنـى {يبتغـون} يطلبـون ويلتمسـون، و(الفضـل) الأربـاح في التجـارة، و(الرضـوان) رضـا اللـه عنهـم، فـلا يحـل بهـم مـن العقوبـة في الدنيـا مـا أحـل بغيرهـم مـن الأمـم في عاجـل دنياهـم بحجهـم بيتـه.[4]

ومـن أبـرز آيـات الثنـاء عـلى المتقيديـن بهـذا الدافـع، تلـك التـي وصـف اللـه فيهـا محمـداً، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وأصحابـه، رضي اللـه عنهـم، فقـال جـل شـأنه: {مُحَمَّـدٌ رَسُـولُ اللَّـهِ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ رُحَـمَاء بَيْنَهُـمْ تَرَاهُـمْ رُكَّعـاً سُـجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً...}[5]، والمـراد مـن قولـه سـبحانه هنـا: {يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً} أي يطلبـون الجنـة ورضـا اللـه تعـالى.[6]

آمليـن التمكـن مـن الوقـوف عنـد مزيـد مـن التفصيـل والوقفـات لـضرب المثـل للإخـلاص بالهجـرة، حسـب المـروي عـن نبينـا محمـد، صـلى اللـه وسـلم وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. تفسير ابن كثير: 4 /338.
2. المائدة: 2.
3. تفسير الثعالبي: 1/ 438.
4. تفسير الطبري: 6 /62.
5. الفتح: 29.
6. تفسير القرطبي: 16/ 293.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الرابعة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رحِيماً} [1]

وقفت الحلقة السابقة عند قضية تشارك المهاجرين والأنصار في الدوافع والغايات والجزاء، فالمهاجرون ابتغوا بهجرتهم فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً، وغاية هجرتهم نصر الله وَرَسُولَه، وحكم لهم بأنهم: {أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[2].

وذكر الله المهاجرين بالجهاد بالمال والنفس، وذكر معهم الأنصار بالإيواء والنصر، ووصف الفريقين معاً بولاية بعضهم بعضاً، وأثبت لهم معاً حقيقة الإيمان، وأن لَّهُم مَّغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيماً، وأثنى الله على الذين يبتغون فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً، في فعل أمور أخرى غير الهجرة في آيات قرآنية عدة، ومن ذلك إبراز دافع ابتغاء فضل الله ورضوانه من قبل المتقيدين بأحكام الإحرام عند قصد بيت الله الحرام للحج أو العمرة، وأثنى الله على المتقيدين بهذا الدافع لما وصف محمداً، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضي الله عنهم، بأنهم "أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً"؛ أي يطلبون الجنة ورضا الله تعالى.[3]

---

1. النساء: 100.
2. الحشر: 8.
3. تفسير القرطبي: 16/ 293.

المهاجر في سبيل الله يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً:

في الآية الكريمة المائة من سورة النساء المثبت نصها أعلاه، يعد الله فيها المهاجر في سبيله وعدين صريحين، أحدهما أن يَجِد فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً، ولفظ {مُرَاغَماً} مشتق من الرغام، وهو التراب، فإنهم يقولون: (رغم أنفه) يريدون به أنه وصل إليه شيء يكرهه، وذلك لأن الأنف عضو في غاية العزة، والتراب في غاية الذلة، فجعلوا قولهم: (رغم أنفه) كناية عن الذل، والمشهور أن هذه المراغمة - للمهاجرين- إنما حصلت بسبب أنهم فارقوا وخرجوا من ديارهم، ويتبنى الرازي معنى آخر، فيقول: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر، يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه، الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية، فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب. والحاصل كأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفاً من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف، فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة، والمراتب العظيمة في مهاجرتك، ما يصير سبباً لرغم أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش؛ لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته، من حيث إنها تصير سبباً لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة، من حيث إنها صارت سبباً لسعة العيش عليه.(*)

أجر المهاجر على الله:

هذا هو الوعد الثاني الذي قطعه الله للمهاجر في سبيل الله، حسب المبين في الآية المائة من سورة النساء المثبت نصها في صدر هذه الحلقة، والرازي يبين أن المانع الثاني من الإقدام على المهاجرة، أن الإنسان يقول إن خرجت من بلدي في طلب هذا الغرض،

* التفسير الكبير: 11/ 13.

فربما وصلت إليه، وربما لم أصل إليه، فالأولى أن لا أضيع الرفاهية الحاضرة بسبب طلب شيء ربما أصل إليه، وربما لا أصل إليه، فأجاب الله تعالى بقوله: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}.[1] والمعنى ظاهر.

ومن المسائل المتضمنة في هذه الآية الكريمة، قول بعضهم إن المراد من قصد طاعة الله، ثم عجز عن إتمامها، كتب الله له ثواب تمام تلك الطاعة، كالمريض يعجز عما كان يفعله في حال صحته من الطاعة، فيكتب له ثواب ذلك العمل، وقال آخرون: ثبت له أجر قصده، وأجر القدر الذي أتى به من ذلك العمل، وأما أجر تمام العمل، فذلك محال، ويرجح الرازي القول الأول؛ لأنه تعالى إنما ذكر هذه الآية هاهنا في معرض الترغيب في الجهاد، وهو أن من خرج إلى السفر لأجل الرغبة في الهجرة، فقد وجد ثواب الهجرة، ومعلوم أن الترغيب إنما يحصل بهذا المعنى، فأما القول بأن معنى الآية هو أن يصل إليه ثواب ذلك القدر من العمل، فلا يصلح مرغباً؛ لأنه قد عرف أن كل من أتى بعمل، فإنه يجد الثواب المرتب على ذلك القدر من العمل، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: (وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى).[2][3]

فهذه وقفة أخرى عند اشتراط الإخلاص لله في الهجرة، وبيان مثوبة المهاجر في سبيل الله في ضوء آية قرآنية كريمة، بينت أن المهاجر في سبيل الله يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً، وأن من يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ يقع أجره على الله، آملين التمكن من الوقوف عند مزيد من التفصيل والوقفات لضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب المروي عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. النساء: 100.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟
3. التفسير الكبير: 11/ 13.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الخامسة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند تفسير إجمالي للآية الكريمة المائة من سورة النساء التي وعد الله فيها المهاجر في سبيله وعدين صريحين، أحدهما أن يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً، والثاني أن يقع أجره على الله لو أدركه الموت وهو خارج في هجرته، ورجح الرازي أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية هاهنا في معرض الترغيب في الجهاد، وهو أن من خرج إلى السفر لأجل الرغبة في الهجرة، فقد وجد ثواب الهجرة، ومعلوم أن الترغيب إنما يحصل بهذا المعنى.

المهاجرون في الله:

اشتراط الإخلاص لله في الهجرة كما ورد في حديث عمر بن الخطاب، المشهور:"إنما الأعمال بالنيات" أكدته آيات قرآنية عديدة، كما في الآية المائة من سورة النساء وغيرها، ومنها الآية الكريمة الحادية والأربعون من سورة النحل، المثبت نصها أعلاه، والتي عرفت المهاجرين الذين يعدهم الله بأن يبوئهم في الدنيا حسنة؛ بأنهم الَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ، ومعنى {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ}؛ أي في شأن الله تعالى ورضاه، وفي حقه ولوجهه، {مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ} لعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأخرجوهم من ديارهم.[2]

1. النحل: 41.
2. تفسير أبي السعود: 5/ 115.

يقول الثعالبي في تفسيره: هؤلاء هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح في سبب نزول الآية، لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، والآية تتناول كل من هاجر أولاً وآخراً.[1]

والحاصل هنا أن الله قيد مثوبة المهاجر بأن تكون هجرته في طاعة الله وسبيله سبحانه، مما يصرف من كانت نيته لغير الله عن بلوغ هذه المنزلة الموعودة للمهاجرين في سبيل الله، وعن نيل مثوبتهم.

يبوء الله المهاجرين فيه في الدنيا حسنة:

يعد الله المهاجرين في سبيله بأنه سيبوئهم في الدنيا حسنة، ومعنى {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} وعد أن ينزلهم بقعة حسنة، وهي المدينة التي استقروا بها، وقيل: إن حسنة صفة لمصدر؛ أي نبوئنهم تبوئة حسنة. [2]

جاء في تفسير أبي السعود، أن قوله سبحانه: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} أي مباءة حسنة، أو تبوئة حسنة، كما قال قتادة، وهو الأنسب بما هو المشهور من كون السورة مدنية، غير ثلاث آيات من آخرها مكية.

وأما ما نقل عن ابن عباس، رضي الله عنهما، من أنها نزلت في صهيب وبلال وعمار وخباب وعايس وجبير وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، فأما صهيب، فقال لهم: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر، رضي الله عنه، قال: ربح البيع يا صهيب. وقال عمر، رضي الله عنه: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه. فإنما يناسب ما حكي عن الأصم من كون كل السورة مدنية، وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية إلى آخر السورة مدنية، فيحمل ما نقل عنه من نزول

1. تفسير الثعالبي: 2 /309.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 154.

الآيـة في أصحـاب الهجرتـين، عـلى أن يكـون نزولهـا بالمدينـة بـين الهجرتـين، وأمـا جعـل رسـول اللـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن جملتهـم، فـلا يسـاعده نظـم التنزيـل، ولا شـأنه الجليـل. وقـرئ (لنثوينهـم)، ومعنـاه إثـواءة حسـنة، أو لننزلنهـم في الدنيـا منزلـة حسـنة، وهـي الغلبـة عـلى مـن ظلمهـم مـن أهـل مكـة، وعـلى العـرب قاطبـة وأهـل الـشرق والغـرب كافـة.[1]

وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ:

تفسـير قولـه تعـالى: {وَلَأَجْـرُ الآخِـرَةِ} في الآيـة المذكـورة آنفـاً؛ أي أجـر أعمالهـم المذكـورة في الآخـرة، {أكـبر} مـما يعجـل لهـم في الدنيـا، وعـن عمـر، رضي اللـه عنـه، أنـه كان إذا أعطى رجـلاً مـن المهاجريـن عطـاء، قـال لـه: خـذ بـارك اللـه تعـالى لـك فيـه، هـذا مـا وعـدك اللـه تعـالى في الدنيـا، ومـا ادخـر في الآخـرة أفضـل.

{لَـوْ كَانُـواْ يَعْلَمُـونَ} الضمـير للكفـار؛ أي لـو علمـوا أن اللـه تعـالى يجمـع لهـؤلاء المهاجريـن خـير الداريـن لوافقوهـم في الديـن، وقيـل للمهاجريـن: أي لـو علمـوا ذلـك لـزادوا في الاجتهاد، أو لمـا تألمـوا لمـا أصابهم مـن المهاجـرة وشـدائدها.[2]

فهـذه وقفـة أخـرى في رحـاب ذكـر المهاجريـن في سـبيل اللـه، وبعـض الوعـود الربانيـة لهـم بالمثوبـة الحسـنة في الدنيـا والآخـرة، عـسى أن ييـسر اللـه التمكـن مـن الوقـوف عنـد مزيـد مـن التفصيـل والوقفـات لـضرب المثـل للإخـلاص بالهجـرة، حسـب مـا جـاء في آيـات القـرآن الكريـم، والمـروي عـن نبينـا محمـد، صـلى اللـه وسـلم وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. تفسير أبي السعود: 5/ 115.
2. تفسير أبي السعود: 5/ 115 - 116.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة السادسة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ ونَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند تأكيد اشتراط الإخلاص لله في الهجرة، الذي ورد في حديث عمر بن الخطاب، المشهور: (إنما الأعمال بالنيات)[2] وتضمنته الآية الكريمة الحادية والأربعون من سورة النحل، التي عرفت المهاجرين الذين يعدهم الله بأن يبوئهم في الدنيا حسنة بأنهم الَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ، ومعنى {والذين هاجروا في الله}؛ أي في شأن الله تعالى ورضاه وفي حقه ولوجهه، ويرى الجمهور بأن هؤلاء هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، والحاصل هنا أن الله قيد مثوبة المهاجر بأن تكون هجرته في طاعة الله وسبيله سبحانه، مما يصرف من كانت نيته لغير الله عن بلوغ هذه المنزلة الموعودة للمهاجرين في سبيل الله، وعن نيل مثوبتهم. ويعد الله المهاجرين في سبيله بأنه سيبوئهم في الدنيا حسنة؛ أي سينزلهم بقعة حسنة، وهي المدينة التي استقروا بها، وعقب سبحانه على هذا الوعد ببيان أن أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة، {أكبر} مما يعجل لهم في الدنيا.

المهاجرون في سبيل الله والأنصار بعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ:

الآية الثانية والسبعون من سورة الأنفال، المثبت نصها الكريم أعلاه، تفيد بأن الهجرة المعتبرة شرعاً هي التي تكون في سبيل الله، فتتحدث عن ولاية المهاجرين بأموالهم

1. الأنفال: 72.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟

وأنفسهم في سبيل الله والأنصار بعضهم بعضاً، ويرجح الرازي بأن المراد بالولاية هنا القرب، مستبعداً أن يكون المقصود منها الإرث، فيقول: فيمكن حمله على غير الإرث، وهو كون بعضهم معظماً للبعض، مهتماً بشأنه، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته، والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى، كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ}[1]، متسائلاً: وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه؟ ويجيب: هذا في غاية البعد، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك، فحينئذ يجب المصير إليه، إلا أن دعوى الإجماع بعيدة.

ويضيف الرازي: بأن هذا الترتيب الذي عده الله في هذه الآية في غاية الحسن؛ لأنه ذكر هاهنا أقساماً ثلاثة: فالأول المؤمنون من المهاجرين والأنصار، وهم أفضل الناس، وبين أنه يجب أن يوالي بعضهم بعضاً، والقسم الثاني: المؤمنون الذين لم يهاجروا، فهؤلاء بسبب إيمانهم لهم فضل وكرامة، وبسبب ترك الهجرة لهم حالة نازلة، فوجب أن يكون حكمهم حكماً متوسطاً بين الإجلال والإذلال، وذلك هو أن الولاية المثبتة للقسم الأول تكون منفية عن هذا القسم، إلا أنهم يكونون بحيث لو استنصروا المؤمنين واستعانوا بهم، نصروهم وأعانوهم، فهذا الحكم متوسط بين الإجلال والإذلال، وأما الكفار- وهم القسم الثالث من المذكورين في الآية الكريمة- فليس لهم البتة ما يوجب شيئاً من أسباب الفضيلة، فوجب كون المسلمين منقطعين عنهم من الوجوه كلها، فلا يكون بينهم ولاية، ولا مناصرة بوجه من الوجوه، فظهر أن هذا الترتيب في غاية الحسن[2]

1. الأنفال: 75.
2. التفسير الكبير: 15/ 166 – 167.

اشتراط الهجرة في سبيل الله لاتخاذ الأولياء:

لأهمية الهجرة في سبيل الله، قيد الله بها قبول اتخاذ أولياء، فقال عز وجل: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً}[1]

تنبع أهمية هذا القيد الإلهي من كون الهجرة في سبيل الله تعني نصرة الإسلام، ومعاضدة المسلمين بعضهم بعضاً، فهم أولياء متناصرون، كالجسد الواحد، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[2]

والقوم المشار إليهم في الآية التاسعة والثمانين من سورة النساء، والمنهي عن موالاتهم حتى يهاجروا في سبيل الله، هم المنافقون، فهم رأس حربة ضد الإسلام والمسلمين، يجب الحذر منهم، فكيف تصح موالاتهم؟! هم الذين يسارعون في الكفر، ويتربصون بالمسلمين الدوائر، ويوالون أعداء الله، ويعملون عيوناً آثمة لهم، وقال الله فيهم في السورة المسماة باسمهم: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[3]، فلا تصح موالاتهم حتى يرجعوا عما هم فيه من غي وضلال، ويؤدوا ما عليهم من واجب في سبيل الله.

فهذه وقفة أخرى في رحاب ذكر المهاجرين في سبيل الله، عسى أن ييسر الله التمكن من الوقوف عند مزيد من التفصيل والوقفات لضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب ما جاء في آيات القرآن الكريم، والمروي عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. النساء: 89.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.
3. المنافقون: 4.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة

الحلقة السابعة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ* لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}[1]

ضمن مؤكدات ضرب المثل للإخلاص بالهجرة، تطرقت الحلقة السابقة إلى موالاة المهاجرين في سبيل الله والأنصار بعْضُهُمْ بَعْضاً، حيث بينت الآية الثانية والسبعون من سورة الأنفال، بأن الهجرة المعتبرة شرعاً هي التي تكون في سبيل الله، والمراد بالولاية هنا القرب، حيث يكون بعضهم معظماً للبعض، مهتماً بشأنه، مخصوصاً بمعاونته ومناصرته، وأن يكونوا يداً واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه، ولأهمية الهجرة في سبيل الله، قيد الله بها قبول اتخاذ أولياء، وتنبع أهمية هذا القيد الإلهي من كون الهجرة في سبيل الله تعني نصرة الإسلام، ومعاضدة المسلمين بعضهم بعضاً، فهم أولياء متناصرون، كالجسد الواحد، من هنا كان النهي عن موالاة المنافقين حتى يهاجروا في سبيل الله.

وعد المهاجرين في سبيل الله بالرزق الحسن:

تتضمن الآية الكريمة الثامنة والخمسون من سورة الحج، والمثبت نصها أعلاه، وعداً إلهياً صريحاً للمهاجرين في سبيله سبحانه، بأن الله سيرزقهم رزقاً حسناً إن ماتوا أو قتلوا، فالله ذكر في هذه الآية أن المؤمنين الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا، بأن قتلهم الكفار في الجهاد؛ لأن هذا هو الأغلب في قتل من قتل منهم، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفهم في غير جهاد، أنه تعالى أقسم ليرزقهم رزقاً حسناً، وأنه خير الرازقين.[2]

1. الحج: 58 - 59
2. أضواء البيان: 5/ 292.

وهذا الوعد يحمل في طياته طمأنة لهم على ما سيجدون من مصير خلال هجرتهم، وما كان لهم أن ينالوا هذا الجزاء العظيم لولا إخلاصهم لله في هجرتهم، فالمهاجر الموعود بالرزق الحسن في ضوء هذه الآية الكريمة، خرج مهاجراً في سبيل الله، فكانت هجرته ابتغاء مرضاة الله، والرازي يبين أن هناك اختلافاً فيمن أريد بذلك، فقال بعضهم: من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وتقرباً إلى الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو في سراياه لنصرة الدين، ولذلك ذكر القتل بعده، ومنهم من حمله على الأمرين.

واختلفوا من وجه آخر، فقال قوم: المراد قوم مخصوصون، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم، ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم، أما الرزق، فقوله تعالى: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرازِقِينَ} ولا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة، وقال الأصم: إنه العلم والفهم، كقول شعيب، عليه السلام: {وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا}[1]، فهذا في الدنيا، وفي الآخرة الجنة، وقال الكلبي: رزقاً حسناً حلالاً، وهو الغنيمة، وهذان الوجهان ضعيفان لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت، وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة.

ويبين الرازي أن فضل المهاجر في سبيل الله على سائر المؤمنين أن ثوابهم أعظم، وقد قال تعالى: {لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}[2]، فمعلوم أن من هاجر مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفارق دياره وأهله لتقويته، ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار، وظهور صولتهم، صار فعله كالسبب لقوة الدين، وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار، حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تالياً لذكر المهاجرين، لما آووه ونصروه.[3]

---

1. هود: 88.
2. الحديد: 10.
3. التفسير الكبير: 23/ 50 - 51.

إدخال المهاجرين في سبيل الله مدخلاً يرضونه:

بعد أن وعد الله المهاجرين في سبيله بالرزق الحسن، تابع سبحانه الحديث عن جزائهم في الآية التالية، فقال عز وجل: {لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ}، جاء في تفسير أبي السعود أن هذه العبارة بدل من قوله تعالى: {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ} أو استئناف مقرر لمضمونه، و{مُّدْخَلاً} إما اسم مكان أريد به الجنة، فهو مفعول ثان للإدخال، أو مصدر ميمي أكد به فعله، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: إنما قيل: {يَرْضَوْنَهُ} لما أنهم يرون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيرضونه.[1]

أما السعدي فقال في تفسير قوله تعالى: {لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ} إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع.[2]

فالمهاجرون في سبيل الله، وعدهم ربهم بالمثوبة الحسنة، التي منها النصر والعز والتمكين في الدنيا، والجنة بما فيها من نعيم مقيم، تلذ به أعينهم، وتسر نفوسهم، فطوبى لهم.

فهذه وقفة أخرى في رحاب ذكر المهاجرين في سبيل الله، وحسن مثوبتهم، عسى أن ييسر الله التمكن من ختم الوقوف عند ما تيسر من جوانب ضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب ما جاء في آيات القرآن الكريم، والمروي عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. تفسير أبي السعود: 6/ 116.
2. تفسير السعدي: 1/ 543.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة
الحلقة الثامنة والأخيرة

يقول الله تعالى في محكم التنزيل الذي نزل به الروح الأمين على قلب خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم: {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}(*)

ضمن مؤكدات ضرب المثل للإخلاص بالهجرة، تطرقت الحلقة السابقة إلى وعد المهاجرين في سبيل الله بالرزق الحسن، وأشارت إلى أن هذا الوعد يحمل في طياته طمأنة لهم على ما سيجدون من مصير خلال هجرتهم، وما كان لهم أن ينالوا هذا الجزاء العظيم لولا إخلاصهم لله في هجرتهم، فالمهاجر الموعود بالرزق الحسن في ضوء هذه الآية الكريمة، خرج مهاجراً لله؛ أي كانت هجرته ابتغاء مرضاة الله، كما وعد الله المهاجرين في سبيله بأن يدخلهم مدخلاً يرضونه، وقيل إن المقصود به فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وقيل دخول الجنة، ولا مانع من قصد الاثنين، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع. فالمهاجرون في سبيل الله وعدهم ربهم بالمثوبة الحسنة، التي منها النصر والعز والتمكين في الدنيا، والجنة بما فيها من نعيم مقيم، تلذ به أعينهم وتسر نفوسهم، فطوبى لهم.

التوصية بالمهاجرين في سبيل الله:

لأهمية الهجرة المبتغى بها نيل ثواب الله، أوصى الله بأهلها خيراً، ومن ضمن ذلك أمره سبحانه أولي الفضل والسعة بأن يعطوهم مما أفاء الله عليهم من الخيرات، والنعم، والفضل، وسعة الأرزاق، حسب مضمون قوله تعالى في الآية الكريمة الثانية والعشرين من سورة النور، المثبت نصها أعلاه، التي حث الله فيها على الصفح والعفو

* النور: 22.

عنهـم إن وقعـت منهـم زلات وأخطـاء، بمعنـى أن لا يجعـل أولـو الفضـل والسـعة أخطـاء الأقـارب والمسـاكين والمهاجريـن في سـبيل اللـه سـبباً لوقـف عونهـم وتقديـم المـدد المـادي إليهـم، فاللـه يغفـر الذنـوب والخطايـا، ويعفـو عـن عبـاده وخلقـه، ومنهـم المهاجـرون في سـبيله، الذيـن سـلكوا سـبيلاً لنيـل غفـران اللـه، وهـو الغفـور الرحيـم، فكـما تحبـون أن يغفـر اللـه لكـم، كذلـك اغفـروا أنتـم لمـن أسـاء إليكـم.[1]

العفو عن أُوْلِي الْقُرْبىَ وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ في سَبِيلِ الله:

ضمـن قصـة حادثـة الإفـك ومجرياتهـا، وتداعياتهـا، تقـول أم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا: (فلـما أَنْـزَلَ اللـه هـذا في بَـرَاءَتي، قـال أبـو بَكْـرٍ الصِّدِّيـقُ، رضي اللـه عنـه - وكان يُنْفِـقُ عـلى مِسْـطَحِ بـن أُثَاثَـةَ لِقَرَابَتِـهِ منـه -: واللـه لَا أُنْفِـقُ عـلى مِسْـطَحٍ شـيئاً أَبَـدًا، بَعْـدَ مـا قـال لِعَائِشَـةَ، فَأَنْـزَلَ اللـه تَعَـالَى: {ولا يَأْتَـلِ أولـوا الْفَضْـلِ مِنْكُـمْ وَالسَّـعَةِ...إلى قَوْلِـهِ: {غَفُـورٌ رَحِيـمٌ} فقـال أبـو بَكْـرٍ: بَـلَى، واللـه إني لَأُحِـبُّ أَنْ يَغْفِـرَ اللـه لي، فَرَجَـعَ إلى مِسْـطَحٍ الـذي كان يُجْـرِي عليـه).[2]

فأبـو بكـر الصديـق، رضي اللـه عنـه، لم يتلـكأ في الاسـتجابة لأمـر اللـه بالعفـو والصفـح عـن المنتفعـين مـن صدقـات أولي الفضـل والسـعة التـي يقدمونهـا لأُوْلِي الْقُـرْبىَ وَالْمَسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِيـنَ في سَـبِيلِ اللَّـهِ، فأعـاد المخصـص المـالي الـذي كان يمنحـه لمسـطح، عـلى الرغـم مـما ارتكـب مـن إسـاءة تجـاه كريمتـه عائشـة، أم المؤمنـين، رضي اللـه عنهـا.

وفي روايـة صحيحـة أخـرى: أن أبـا بكـر، رضي اللـه عنـه، بعـد نـزول هـذه الآيـة الكريمـة، (رَجَـعَ إلى مِسْـطَحٍ النَّفَقَـةَ التي كان يُنْفِـقُ عليـه، وقـال: واللـه لَا أَنْزِعُهَـا منـه أَبَـدًا).[3]

والمقصـود بـأولي الفضـل والسـعة في الآيـة الكريمـة أَبَـا بَكْـرٍ، رضي اللـه عنـه، وبـ{أُولِي الْقُـرْبىَ وَالْمَسَـاكِينَ} يعنـي مِسْـطَحًا.[4]

وفي صحيح مسلم عن عبد اللَّهِ بن المُبَارَكِ، قال: (هذه أَرْجَى آيَةٍ في كِتَابِ اللَّهِ).[5]

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 63.
2. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النور، باب {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة} (النور: 19).
5. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.

خلاصة الحديث عن ضرب المثل للإخلاص بالهجرة:

الإخلاص لله منطلق مشروط لقبول الأعمال والمثوبة عليها، وقد تم بعون الله تعالى الوقوف عند جوانب متعلقة بهذا الموضوع من خلال الحديث عن مثال ضربه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالهجرة؛ لحصر ربط قبول الأعمال بصفاء النيات، ونقائها لله وحده، فالنية حد فاصل لقبول القربات أو ردها؛ لأن الانحراف عن الإخلاص فيها يعني الرياء، والطلب من غيره سبحانه المنافع والجوائز عليها، سواء أكانت مادية أم معنوية، بالثناء وكسب السمعة والإطراء، فحال المتقدم بالقربة لنيل منافع الخلق، يقود للتلبس بشرك حذر الله منه، حيث قال سبحانه: {...فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[1]

وفي الحديث الصحيح عن عبد اللَّهِ، قال: سَأَلْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قال: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ، قلت: إِنَّ ذلك لَعَظِيمٌ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ: قال وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟: قال: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أيقظ الأذهان، لما ضرب مثالاً عملياً للإخلاص بالهجرة، فالذي يهاجر إلى الله بنية صادقة، وإخلاص ناصع، يختلف حاله وجزاؤه، عن الذي يقوم بفعل الهجرة نفسه، ولكن لأهداف دنيوية أخرى، وشتان بين الطرفين، والجزاءين، فمن يهاجر لله، فهو في ذمته سبحانه ورعايته، وينتظره انتصار رباني له في الدنيا، وقبول رحب في الآخرة، بخلاف الآخر.

وبهذه الوقفة نختم في هذه المرحلة الحديث عن ضرب المثل للإخلاص بالهجرة، حسب ما جاء في آيات القرآن الكريم، والمروي عن نبينا محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 22.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون} (البقرة: 22).

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، تمنى الشهادة في سبيل الله
الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ). فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُهُنَّ ثَلاَثًا، أَشْهَدُ بِاللَّهِ.[1]

صنف الإمام البخاري في صحيحه هذا الحديث الشريف في صدارة كتاب التمني، وضمن باب ما جاء في التمني، ومن تمنى الشهادة.

وورد هذا التمني في سياق حديث شريف بيّن فيه عليه الصلاة والسلام، فضل الجهاد في سبيل الله، ففي صحيح البخاري، تحت بَاب تَمَنِّي الشَّهَادَةِ أخبر سَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ).[2]

وفي صحيح مسلم تحت بَاب: فَضْلِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، جاء عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ

1. صحيح البخاري، كتاب التمني، باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة.

اللـهِ أَبَـدًا، وَلَكِـنْ لَا أَجِـدُ سَـعَةً فَأَحْمِلَهُـمْ، وَلَا يَجِـدُونَ سَـعَةً، وَيَشُـقُّ عَلَيْهِـمْ أَنْ يَتَخَلَّفُـوا عَـنِّي، وَالَّـذِي نَفْـسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ، لَـوَدِدْتُ أَنِّي أَغْـزُو فِي سَـبِيلِ اللـهِ فَأُقْتَـلُ، ثُـمَّ أَغْـزُو فَأُقْتَـلُ، ثُـمَّ أَغْـزُو فَأُقْتَـلُ).[1]

فهـذه الروايـات الصحيحـة تُجمـع عـلى إثبـات رغبـة الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في الغـزو في سـبيل اللـه، وتمنّيـه لـو يتكـرر لـه أن يقتـل في سـبيل اللـه، ثـم العـودة للحيـاة، بعـد كل إحيـاء، ليعـاود القتـال في سـبيل اللـه، ونيـل الشـهادة.

مفهوم التمني:

يبـين ابـن حجـر العسـقلاني أن التمـني تفعـل مـن الأمنيـة، والجمـع أمـاني، والتمـني إرادة تتعلـق بالمسـتقبل، إن كانـت في خـير مـن غـير أن تتعلـق بحسـد، فهـي مطلوبـة، وإلا فهـي مذمومـة، وقـد قيـل أن بـين التمـني والترجـي عمومـاً وخصوصـاً، فالترجـي في الممكـن، والتمـني في أعـم مـن ذلـك، وقيـل: التمـني يتعلـق بمـا فـات، وعـبر عنـه بعضهـم بطلـب مـا لا يمكـن حصولـه، وقـال الراغـب: قـد يتضمـن التمـني معـنى الـود؛ لأنـه يتمـنى حصـول مـا يـود.

وقولـه: (لَـوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ، ثُـمَّ أُحْيَـا) ووقـع في الطريـق الثانيـة: (وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ فَأُقْتَـلُ) وهـي أبـين، ووقـع في روايـة الكشـميهني: (لأقاتـل) بزيـادة لام التأكيـد، (ووددت) مـن الـودادة، وهـي إرادة وقـوع الـشيء عـلى وجـه مخصـوص يـراد، وقـال الراغـب: الـود محبـة الـشيء، وتمـني حصولـه، فمـن الأول: {قُـلْ لَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـرًا إِلَّا الْمَـوَدَّةَ فِي الْقُـرْبَى...}[2]، ومـن الثـاني: { وَدَّتْ طَائِفَـةٌ مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ...}[3].[4]

ملحوظات حول متن الحديث أعلاه:

جـاء في شرح الزرقـاني، أن الطيـبي قـال: (ثـم) وإن دلـت عـلى تراخـي الزمـان، لكـن الحمـل عـلى تراخـي الرتبـة هـو الوجـه؛ لأن التمـني حصـول درجـات بعـد القتـل، والإحيـاء لـم يحصـل قبـل،

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله.
2. الشورى: 23.
3. آل عمران: 69.
4. فتح الباري: 13 /217.

ومن ثم كررها لنيل مرتبة بعد مرتبة، إلى أن ينتهي إلى الفردوس الأعلى.

وعبارة: (فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُهُنَّ ثَلاَثًا، أَشْهَدُ بِاللَّهِ) أنه قال ذلك، وفائدة التأكيد لتطمئن نفس سامعه إليه، ولا يشك فيما حدثه به، وهذا من كلام الراوي.[1]

قال النووي: فيه فضيلة الغزو والشهادة، وفيه تمني الشهادة والخير، وتمني ما لا يمكن في العادة من الخيرات، وفيه أن الجهاد فرض كفاية، لا فرض عين.[2]

في الفردوس الأعلى:

الأخبار والأحاديث الدالة على فضل الشهداء ومنازلهم في الآخرة كثيرة، منها بشارة النبي، صلى الله عليه وسلم، لأم حارثة بشأن مصير ابنها الشهيد حارثة، فعن أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ، أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ، فَقَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ! فَقَالَ لَهَا: «هَبِلْتِ، أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى، وَقَالَ: غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ، أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا).[3]

فهذه إطلالة دالة على فضل الشهادة في سبيل الله، راجين التوفيق في متابعة الحديث عن المزيد من أبعاد ومحاور هذه القضية في ضوء الهدي القرآني، وسنة النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. شرح الزرقاني: 3 /44.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 13 /22.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، تمنى الشهادة في سبيل الله
الحلقة الثانية

عـن أَنَـسَ بـن مَالِـكٍ، رضي اللـه عنـه، عـن النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (مَـا مِـنْ عَبْـدٍ يمُـوتُ، لَـهُ عِنْـدَ اللَّـهِ خَـيْرٌ، يَـسُرُّهُ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَى الدُّنْيَـا، وَأَنَّ لَـهُ الدُّنْيَـا وَمَـا فِيهَـا، إِلَّا الشَّـهِيدَ؛ لِـمَا يَـرَى مِـنْ فَضْـلِ الشَّـهَادَةِ، فَإِنَّـهُ يَـسُرُّهُ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَى الدُّنْيَـا، فَيُقْتَـلَ مَـرَّةً أُخْـرَى).(*)

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد الحديـث الشريـف الـذي تمنـى فيـه الرسـول الأسـوة، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الشـهادة في سـبيل اللـه، وورد هـذا التمنـي في سـياق بيـان فضـل الجهـاد في سـبيل اللـه، الـذي تضمنتـه روايـات صحيحـة أجمعـت عـلى إثبـات رغبـة الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في الغـزو في سـبيل اللـه، وتمنيـه لـو يتكـرر لـه أن يقتـل في سـبيل اللـه، ثـم يعـود للحيـاة، ليعـاود القتـال في سـبيل اللـه، ونيـل الشـهادة.

وبـين ابـن حجـر العسـقلاني أن التمنـي تفعـل مـن الأمنيـة، والجمـع أمـاني، والتمنـي إرادة تتعلـق بالمسـتقبل، فـإن كانـت في خـير مـن غـير أن تتعلـق بحسـد، فهـي مطلوبـة، وإلا فهـي مذمومـة، وقيـل إن بـين التمنـي والترجـي عمومـاً وخصوصـاً، فالترجـي في الممكـن، والتمنـي في أعـم مـن ذلـك، وقيـل التمنـي يتعلـق بمـا فـات، وعـبر عنـه بعضهـم بطلـب مـا لا يمكـن حصولـه، وقـال الراغـب: قـد يتضمـن التمنـي معنـى الـود؛ لأنـه يتمنـى حصـول مـا يـود.

وعـن هـذا الحديـث قـال النـووي: فيـه فضيلـة الغـزو والشـهادة، وفيـه تمنـي الشـهادة والخـير، وتمنـي مـا لا يمكـن في العـادة مـن الخـيرات، وفيـه أن الجهـاد فـرض كفايـة، لا فـرض عـين، ومـن فضـل الشـهادة المنزلـة التـي نالهـا الشـهيد حارثـة، الـذي بـشر النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أمـه، بأنـه في الْفِـرْدَوْسِ الأعـلى، وقـال: (غَـدْوَةٌ في سَـبِيلِ اللَّـهِ أو رَوْحَـةٌ خَـيْرٌ مـن الدُّنْيَـا ومـا فيهـا).

---

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن يحار فيها الطرف شديدة سواد العين شديدة بياض العين.

نظرة في لغة الحديث وتسمية الشهيد:

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (يموت) جملة وقعت صفة لعبد، وكذلك قوله: (له عند الله خير) صفة أخرى، وقوله: (خير) أي ثواب، وقوله: (يسره) جملة وقعت صفة لقوله: (خير) وقوله: (وأن له الدنيا) عطف على أن يرجع، وقوله: (إلاَّ الشهيد) مستثنىً من قوله: (يسره أن يرجع) وقوله: (لِما يرى) بكسر اللام التعليلية، وقوله: (فيقتل) على صيغة المجهول بالنصب، عطفاً على (أن يرجع).[1]

وبالنسبة إلى تسمية الشهيد، قال النووي: اختلف في سبب تسميته شهيداً، فقال النضر ابن شميل: لأنه حي، فأرواح الشهداء شهدت وحضرت دار السلام، وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة.

وقال ابن الأنباري: إن الله تعالى وملائكته، عليهم الصلاة والسلام، يشهدون له بالجنة.

وقيل: لأنه شهد عند خروج روحه ما أعده الله تعالى من الثواب والكرامة.

وقيل: لأن ملائكة الرحمة يشهدونه، فيأخذون روحه، وقيل: لأنه شهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله، وقيل: لأنه ممن يشهد على الأمم يوم القيامة بإبلاغ الرسل الرسالة إليهم، وعلى هذا القول يشاركهم غيرهم في هذا الوصف.

قال ابن بطال: هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، قال: وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم فيه الثواب.[2]

فضل الشهادة، وحب الشهيد العودة إلى الدنيا ليقتل:

جاء في الصحيحين أن الشهيد يحب أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، فعن أَنَسَ ابن مَالِكٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ).[3]

---

1. عمدة القاري: 14 /94.
2. تحفة الأحوذي: 5/ 248 - 249.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا.

ففي هذه الرواية، وعند مسلم في رواية، يحب الشهيد الرجوع إلى الدنيا ويقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة، أي لأجل ما يراه من الكرامة للشهداء.[1]

وفي رواية لمسلم، لما يرى من فضل الشهادة، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ، فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ).[2]

وفيه إيماء إلى أنه لا يتمنى شيئاً من شهوات الدنيا إلا الشهادة، وهي ليست منها.[3]

ومن فضل الشهداء والجرحى الذين أصيبوا في الدنيا وكرامتهم، أنهم يأتون يوم القيامة بجراح تنزف دماً، لها لون الدم، وريحها ريح مسك، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ).[4]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (يكلم) على صيغة المجهول، أي يجرح، من الكلم بالفتح، وهو الجرح، وقوله: (وَكَلْمُهُ) بفتح الكاف، وسكون اللام، أي جرحه، (يَدْمَى) بفتح الياء، وسكون الدال، وفتح الميم، من دمى يدمى، من باب علم يعلم، أي يسيل منه الدم، وقوله: (اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ) تشبيه بليغ بحذف أداة التشبيه، وكذلك (وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ).[5]

فهذه إطلالة أخرى دالة على فضل الشهادة في سبيل الله، راجين التوفيق في متابعة الحديث عن مزيد من أبعاد هذه القضية ومحاورها، في ضوء الهدي القرآني، وسنة النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري: 14 /114.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى.
3. مرقاة المفاتيح: 6 /2463.
4. صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك.
5. عمدة القاري: 21 /135.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، تمنى الشهادة في سبيل الله
الحلقة الثالثة والأخيرة

عـن أَبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (انْتَـدَبَ اللَّـهُ لِمَـنْ خَـرَجَ فِي سَـبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُـهُ إِلَّا إِيمَـانٌ بِي وَتَصْدِيـقٌ بِرُسُـلِي، أَنْ أُرْجِعَـهُ بِمَـا نَـالَ مِـنْ أَجْـرٍ أَوْ غَنِيمَـةٍ، أَوْ أُدْخِلَـهُ الجَنَّـةَ، وَلَـوْلاَ أَنْ أَشُـقَّ عَـلَى أُمَّتِي مَـا قَعَـدْتُ خَلْـفَ سَرِيَّـةٍ، وَلَـوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ، ثُـمَّ أُحْيَـا، ثُـمَّ أُقْتَـلُ، ثُـمَّ أُحْيَـا، ثُـمَّ أُقْتَـلُ).(*)

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد حديـث أَنَـس بـن مَالِـكٍ، الـذي بـيّن أن الشـهيد يتميـز عـن أهـل الجنـة بحبـه الرجـوع إلى الدُّنْيَـا، لِيُقْتَـلَ مَـرَّةً أُخْـرَى، مشـيرة إلى الآراء الـواردة في سـبب تسـمية الشـهيد، وأن هـذا الحديـث أجـل مـا جـاء في فضـل الشـهادة، وجـاء في الصحيحـين أن الشـهيد يحـب أن يرجـع إلى الدنيـا فيقتـل عـشر مـرات، ومـن فضـل الشـهداء والجرحـى الذيـن أصيبـوا في الدنيـا وكرامتهـم، أنهـم يأتـون يـوم القيامـة بجـراح تنـزف دمـاً، لـه لـون الـدم، وريحـه ريـح مسـك.

وعد الشهيد بالأجر، أو الغنيمة، أو دخول الجنة:

مقدمـة حديـث أبي هريـرة، رضي اللـه عنـه، أعـلاه بينهـا وبـين خاتمتـه صلـة وثيقـة، ففـي المقدمـة بيـان لوعـد اللـه للـذي يخـرج في سـبيل اللـه بدافـع خالـص مـن الإيمـان باللـه وتصديـق رسـله، عليهـم السـلام، بـأن اللـه سـيرجعه بالأجـر أو الغنيمـة، أو يدخلـه الجنـة، جـاء في مرقـاة المفاتيـح، أن معنـى انتـدب هنـا ضمـن، وقولـه: (لِمَـنْ خَـرَجَ فِي سَـبِيلِهِ) أي الجهـاد، (لاَ يُخْرِجُـهُ) أي حـال كونـه لا يكـون باعـث خروجـه إِلَّا إِيمَـانٌ، بِي وَتَصْدِيـقٌ بِرُسُـلِي، وفي جمـع الرسـل إشـارة إلى أن تصديـق واحـد تصديـق للـكل، أو إيمـاء إلى تعظيمـه، فإنـه قـام مقـام الـكل.

* صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان.

(أَنْ أُرْجِعَهُ) أي بضم همزة وكسر جيم، أي أرده (بِمَا نَالَ) أي أدرك (مِنْ أَجْرٍ) أي فقط إن لم يغنم شيئاً (أَوْ غَنِيمَةٍ) أي معها أجر، فأو للتنويع، وكذا في قوله: (أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ) عطفاً على أرجعه، أي دخولاً أوّلياً، وفي النهاية (انتدب الله) أي أجابه إلى غفرانه، يقال: ندبته فانتدب، أي بغيته ودعوته فأجاب.

وقال التوربشتي: وفي بعض طرقه (تضمن الله) وفي بعضها (تكفل الله)، وكلاهما أشبه بنسق الكلام من قوله: (انْتَدَبَ اللَّهُ).

وقوله: (بما نال) على لفظ الماضي، وارد على تحقق وعد الله تعالى وحصوله، قال التوربشتي: يروى (أو غنيمة) وهو لفظ الكتاب، ويروى بالواو، وهو أوجه الروايتين وأسدهما معنى، وفي هذا بحث، إذ يلزم أن لا يرجع المجاهد إلا بالجمع بين الأجر والغنيمة، وهي قد تحصل، وقد لا تحصل، فالرواية (بأو) هي الأصل والأولى، وتحمل الواو على معناها، ليتم المعنى على المبنى. قال الطيبي: (أو) بمعنى الواو، ورد في التنزيل، منه قوله تعالى: {عذراً أو نذراً}[1] ولا مانع من ورود أو بمعنى الواو.[2]

الرفق بالضعفاء الذين لا يملكون الإمكانات اللازمة للخروج:

الأحاديث المشيرة إلى حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على المشاركة في حملات الجهاد جميعها، وتمنيه الشهادة في سبيل الله لفضلها، تضمن عدد منها تعليلاً واحداً مَنع من تحقيق هذه الرغبة، تمثل في الرفق بالذين يحرجون عن التخلف عنه، ويفتقرون إلى الإمكانات التي تلزم لمشاركتهم، كما هو مبين في الحديث أعلاه، وأحاديث أخرى، منها قوله صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا يَكْرَهُونَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا بَعْدِي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ، مَا تَخَلَّفْتُ...).[3]

فنفوسهم لا تطيب بالتخلف، ولا يقدرون على التأهب؛ لعجزهم عن آلة السفر؛ من

1. المرسلات: 6.
2. مرقاة المفاتيح: 7 /324 - 325.
3. صحيح البخاري، كتاب التمني، باب ما جاء في التمني، ومن تمنى الشهادة.

مركوب وغيره، ويشق عليهم تحمل تعذر وجوده صلى الله عليه وسلم، معهم.[1]

جاء في شرح الزرقاني ما مفاده، أنه صلى الله عليه وسلم، أورد هذه عقب تلك، إرادة لتسلية الخارجين في الجهاد عن مرافقته لهم، فكأنه قال: الوجه الذي تسيرون له فيه من الفضل ما أتمنى لأجله أن أقتل مرات، فمهما فاتكم من مرافقتي والقعود معي من الفضل، يحصل لكم مثله أو فوقه من فضل الجهاد، فراعى خواطر الجميع، وقد خرج في بعض المغازي، وخلف عنه المشار إليهم، وكان ذلك حيث رجحت مصلحة خروجه على مراعاة حالهم، وفيه بيان شدة شفقته على أمته ورأفته بهم، والحض على حسن النية، وجواز ترك بعض المصالح لمصلحة راجحة أو أرجح، أو لدفع مفسدة، والسعي في إزالة المكروه عن المسلمين.[2]

بَلْ أَحْيَاء:

الشهداء في سبيل الله ميزهم الله بالنهي عن إلحاقهم بمصاف الأموات؛ لأنهم وفق بيانه سبحانه أحياء عند ربهم يرزقون، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[3] يبين الرازي أن قول أكثر المفسرين في الآية أن الشهداء في الوقت أحياء، كأن الله تعالى أحياهم لإيصال الثواب إليهم، وهذا دليل على أن المطيعين يصل ثوابهم إليهم، وهم في القبور. فإن قيل: نحن نشاهد أجسادهم ميتة في القبور، فكيف يصح ما ذهبتم إليه؟ يبين الرازي أن البنية ليست شرطاً في الحياة، ولا امتناع في أن يعيد الله الحياة إلى كل واحد من تلك الذرات والأجزاء الصغيرة، من غير حاجة إلى التركيب والتأليف.[4]

وقد جاء في الحديث الصحيح عن مَسْرُوقٍ، (قال: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ _ هو ابن مسعود _ عن هذه الْآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ

1. عمدة القاري: 14 /95.
2. شرح الزرقاني: 3 /58.
3. البقرة: 154.
4. التفسير الكبير: 4 /132 - 133.

بِالْعَـرْشِ، تَـسْرَحُ مِـنَ الْجَنَّـةِ حَيْـثُ شَـاءَتْ، ثُـمَّ تَـأْوِي إِلَى تِلْـكَ الْقَنَادِيـلِ، فَاطَّلَـعَ إِلَيْهِـمْ رَبُّهُـمُ اطِّلَاعَـةً، فَقَـالَ: هَـلْ تَشْـتَهُونَ شَـيْئًا؟ قَالُـوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْـتَهِي وَنَحْـنُ نَـسْرَحُ مِـنَ الْجَنَّـةِ حَيْـثُ شِـئْنَا، فَفَعَـلَ ذَلِـكَ بِهِـمْ ثَـلَاثَ مَـرَّاتٍ، فَلَـمَّا رَأَوْا أَنَّهُـمْ لَـنْ يُتْرَكُـوا مِـنْ أَنْ يُسْـأَلُوا، قَالُـوا: يَـا رَبِّ، نُرِيـدُ أَنْ تَـرُدَّ أَرْوَاحَنَـا فِي أَجْسَـادِنَا حَتَّـى نُقْتَـلَ فِي سَـبِيلِكَ مَـرَّةً أُخْـرَى، فَلَـمَّا رَأَى أَنْ لَيْـسَ لَهُـمْ حَاجَـةٌ تُرِكُـوا)[1].

ويقـول صاحـب التسـهيل لعلـوم التنزيـل: حـال الشـهداء حـال الأحيـاء مـن التمتـع بـأرزاق الجنـة، بخـلاف سـائر الأمـوات مـن المؤمنـين، فإنهـم لا يتمتعـون بـالأرزاق حتـى يدخلـوا الجنـة يـوم القيامـة.[2]

سـائلين اللـه العـلي القديـر أن يرزقنـا الشـهادة الصادقـة المخلصـة لوجهـه الكريـم، وأن يحشرنا يـوم القيامـة مـع النبيـين والصديقـين والشـهداء والصالحـين، وحسـن أولئـك رفيقاً.

وبهـذه الإطلالـة الدالـة عـلى فضـل الشـهادة في سـبيل اللـه، نختـم في هـذه المرحلـة الوقـوف عنـد أبعـاد هـذه القضيـة ومحاورهـا في ضـوء الهـدي القـرآني، وسـنة النبـي الهـادي محمـد، صـلى اللـه وسـلم وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /124.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبايع النساء
الحلقة الأولى

عـن عَائِشَـةَ، رضي اللـه عنهـا، قالـت: (كان النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يُبَايِـعُ النِّسَـاءَ بِالـكَلَامِ بِهَـذِهِ الْآيَـةِ: {لَا يُشْرِكْـنَ بِاللَّـهِ شـيئاً} قالـت: ومـا مَسَّـتْ يَـدُ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يَـدَ امْـرَأَةٍ إلا امْـرَأَةً يَمْلِكُهَـا).[1]

أم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا، تخـبر في الحديـث أعـلاه عـن مبايعـة النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، ومـن مغـازي هـذه المبايعـة الإشـعار بأهميـة المـرأة في الإسـلام، فلـولا مكانتهـا واحـترام وجودهـا لكانـت هملاً بـلا اعتبـار، والرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أقـدم عـلى مبايعـة النسـاء بصفتـه النبـي والمسـؤول عـن جماعـة المسـلمين بمكوناتهـا كلهـا، والنسـاء جـزء رئيـس مـن هـذه المكونـات، وفي الثامـن مـن آذار يـوم المـرأة العالمـي، الـذي يتـم فيـه التركيـز عـلى قضايـا المـرأة وإنجازاتهـا والمشـكلات التـي تعترضهـا، يجـدر التنويـه بالمكانـة الرفيعـة التـي تحظـى بهـا في ظـل شريعـة الإسـلام ومبادئـه وقيمـه، ومـن ذلـك الوقـوف عنـد دلالـة مبايعتهـا حسـب مـا جـاء في آيـات التنزيـل الكريـم، ومـا أثـر في سـنة النبـي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وأصحابـه الغـر الميامـين.

بنود بيعة النساء:

تذكـر أم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا، في الحديـث أعـلاه أن مبايعـة النسـاء كانـت بآيـة: {لَا يُشْرِكْـنَ بِاللَّـهِ شـيئاً} قصـدت بذلـك قولـه تعـالى في سـورة الممتحنـة: {يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ إِذَا جَـاءكَ الْمُؤْمِنَـاتُ يُبَايِعْنَـكَ عَـلَى أَن لَّا يُشْرِكْـنَ بِاللَّـهِ شَـيْئاً وَلَا يَسْرِقْـنَ وَلَا يَزْنِـينَ وَلَا يَقْتُلْـنَ أَوْلَادَهُـنَّ وَلَا يَأْتِـينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَـيْنَ أَيْدِيهِـنَّ وَأَرْجُلِهِـنَّ وَلَا يَعْصِينَـكَ فِي مَعْـرُوفٍ فَبَايِعْهُـنَّ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُـنَّ اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ}.[2]

فعـن عُـرْوَة، أَنَّ عَائِشَـةَ، رضي اللـه عنهـا، زَوْجَ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أَخْبَرَتْـهُ، (أَنَّ

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء.
2. الممتحنة: 12.

رَسُولَ اللَّـهِ، صلى الله عليه وسلم، كان يَمْتَحِنُ من هَاجَرَ إليه من الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، بِقَوْلِ اللَّـهِ: {يا أَيُّهَا النبي إذا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ...إلى قَوْلِهِ: غَفُورٌ رَحِيمٌ}...)[1]

وأول بنود البيعة وأهمها: الابتعاد عن الشرك بالله، فالشرك ظلم عظيم، وثانيها: الامتناع عن السرقة، وثالثها: تجنب اقتراف الزنى، ورابعها: {أن لَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ}، جاء في التفسير الكبير، أن قوله: {وَلَا يَسْرِقْنَ} يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال، والنقصان من العبادة، {وَلَا يَزْنِينَ} يحتمل حقيقة الزنى ودواعيه أيضاً، وقوله: {وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ} أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية، ثم هو عام في كل نوع من قتل الولد وغيره.[2]

وخامس بنود مبايعة النساء: (أن لَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ)، جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن معنى {وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ} عند الجمهور أن تنسب المرأة إلى زوجها ولداً ليس له، وكانت المرأة تلتقط الولد، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: {يفترينه بين أيديهن وأرجلهن} لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلده به بين رجليها، واختار ابن عطية أن يكون البهتان هنا على العموم، بأن ينسب إلى الرجل غير ولده، أو تفتري على أحد بالقول أو تكذب فيما ائتمنها الله عليه، من الحيض والحمل وغير ذلك، وإلى هذا أشار بعض الناس بأن قال: (بين أيديهن) يراد به اللسان والفم، وبين الأرجل يراد به الفرج.

وسادسها: أن لا يعصين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في معروف، أي لا يعصينه فيما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي، ومن ذلك النهي عن النياحة، وشق الجيوب، ووصل الشعر، وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفعلنه.[3]

ما للنساء بموجب مبايعتهن:

إذا تحقق قبول النساء التقيد ببنود المبايعة المبينة في الآية الكريمة، فلهن في المقابل من قبل الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يبَايِعْهُنَّ، وَيسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّـهَ، إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الممتحنة، باب {إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات}(الممتحنة: 10).
2. التفسير الكبير: 29/ 266 - 267.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 116، بتصرف.

رَّحِيم. وقوله: {فَبَايِعْهُنَّ} جواب {إِذَا} أي إذا بايعنك على هذه الشرائط فبايعهن.[1]

وفي تفسير أبي السعود، أن قوله: {فبايعهن} أي على ما ذكر، وما لم يذكر، لوضوح أمره، وظهور أصالته في المبايعة من الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين، وشعائر الإسلام، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن، لحثهن على المسارعة إليها، مع كمال الرغبة فيها، من غير دعوة لهن إليها.

{واستغفر لهن الله} زيادة على ما في المبايعة، فإنها عبارة عن ضمان الثواب من قبله، عليه الصلاة والسلام، بمقابله الوفاء بالأمور المذكورة من قبلهن {إن الله غفور رحيم} أي مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن، إذا وفين بما بايعن عليه.[2]

ما يرشد إليه الحديث:

يقول الإمام النووي: فيه أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف، وفيه أن بيعة الرجال بأخذ الكف مع الكلام، وفيه أن كلام الأجنبية يباح سماعه عند الحاجة، وأن صوتها ليس بعورة، وأنه لا يلمس بشرة الأجنبية من غير ضرورة؛ كتطبب وفصد وحجامة وقلع ضرس ونحوها، مما لا توجد امرأة تفعله، جاز للرجل الأجنبي فعله للضرورة.[3]

بيعة النساء تشير إلى حرص الشرع الحنيف على التزام النساء من جانبهن بشرع الإسلام الموصى به من رب العالمين، وذلك يحقق الخير والنفع لهن ومجتمعهن ودينهن، آملين متابعة الحديث عن قضايا وجوانب أخرى ذات صلة ببيعة النساء، التي عقدها معهن الرسول الأسوة، محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التفسير الكبير: 29/ 267.
2. تفسير أبي السعود: 8/ 241.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 13 /10.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبايع النساء
الحلقة الثانية والأخيرة

عـن عُبَـادَةَ بـن الصَّامِـتِ، قـال: (أَخَـذَ عَلَيْنَـا رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، كـما أَخَـذَ عـلى النِّسَـاءِ؛ أَنْ لَا نُـشْرِكَ بِاللَّـهِ شيئاً، ولا نَـسْرِقَ، ولا نَـزْنِيَ، ولا نَقْتُـلَ أَوْلَادَنَـا، ولا يَعْضَـهَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا، فَمَـنْ وفى مِنْكُـمْ، فَأَجْـرُهُ عـلى اللَّـهِ، وَمَـنْ أتى مِنْكُـمْ حَـدًّا فَأُقِيـمَ عليـه، فَهُـوَ كَفَّارَتُـهُ، وَمَـنْ سَـتَرَهُ اللـه عليـه، فَأَمْـرُهُ إلى اللَّـهِ؛ إن شَـاءَ عَذَّبَـهُ، وَإِنْ شَـاءَ غَفَـرَ لـه).[1]

اسـتدل في الحلقـة السـابقة بمبايعـة النسـاء عـلى احـترام المـرأة، والاهتـمام بشـؤونها، فهـي أحـد شـقي الجنـس البـشري، والمـرأة تحظى بمكانـة رفيعـة في شريعـة الإسـلام ومبادئـه وقيمـه، ولهـذه المبايعـة بنـود ومقابـل، بينتهـا الآيـة 12 مـن سـورة الممتحنـة، وحديـث مبايعـة النسـاء يـدل عـلى حـرص الـشرع الحنيـف عـلى التـزام النسـاء مـن جانبهـن بعـدد مـن البنـود المنتظمـة في جملـة مـا نـزل بـه ديـن الإسـلام مـن رب العالمـين، بمـا يحقـق الخـير والنفـع للنسـاء ومجتمعهـن ودينهـن.

مبايعة الرجال:

جـاء في عمـدة القـاري، أن معنـى قولـه: (ولا يَعْضَـهَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا) في الحديـث أعـلاه؛ أي لا يسـخر، وقيـل: لا يـأتي ببهتـان، يقـال: عضهـت الرجـل، رميتـه بالعضيهـة، قـال الجوهـري: العضيهـة البهيتـة، وهـو الإفـك والبهتـان.[2]

ويذكـر الإمـام العينـي أن بيعـة النسـاء وردت في القـرآن في حـق النسـاء، فعرفـت بهـن، ثـم اسـتعملت في الرجال.[3]

ويبـين الصحـابي الجليـل عبـادة بـن الصامـت في الحديـث أعـلاه، أن الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أخـذ عـلى الرجـال كـما أخـذ عـلى النسـاء؛ قاصـداً بيعـة العقبـة الأولى، بدليـل

1. صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.
2. عمدة القاري: 1 /160.
3. عمدة القاري: 24 /276.

قولـه في روايـة أخـرى: (إني لَمِـن النُّقَبَـاءِ الَّذِيـنَ بَايَعُـوا رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وقـال: بَايَعْنَـاهُ عـلى أَنْ لَا نُـشْرِكَ بِاللَّـهِ شـيئاً، ولا نَـزْنِيَ، ولا نَـسْرِقَ، ولا نَقْتُـلَ النَّفْـسَ التـي حَـرَّمَ اللـه إلا بِالْحَـقِّ، ولا نَنْتَهِـبَ، ولا نَعْـصِيَ، فَالجَنَّـةُ إن فَعَلْنَـا ذلـك، فَـإِنْ غَشِـينَا مـن ذلـك شـيئاً كان قَضَـاءُ ذلـك إلى اللَّـهِ)[1]

جـاء في عمـدة القـاري، أن قولـه: (بايعـوا رسـول اللـه) يعنـي ليلـة العقبـة، وقولـه: (ولا نعـصي) أي في المعـروف.[2]

وفيـه أن قولـه: (مـن النقبـاء) هـم الأشراف، وقيـل: الأمنـاء الذيـن يعرفـون طـرق أمورهـم، وقيـل: شـهداء القـوم وضمناؤهـم، وقولـه: (ولا ننتهـب) أي لا نأخـذ مـال أحـد بغـير حقـه، وقولـه: (بالجنـة) متعلـق بقولـه بايعنـاه، وحاصـل المعنـى أنـا بايعنـاه عـلى أن لا نفعـل شـيئاً مـن المذكـورات بمقابلـة الجنـة، يعنـي تكـون لنـا الجنـة عنـد ذلـك، وقولـه: (فـإن غشـينا) مـن الغشـيان، وهـو الإصابـة، وقولـه: (شـيئاً) بالنصـب مفعـول غشـينا، وقولـه: (كان قضـاء ذلـك)؛ أي كان الحكـم فيـه عنـد الغشـيان مـن ذلـك مفوضـاً إلى اللـه تعـالى، إن شـاء عاقـب، وإن شـاء عفـا، اللهـم اعـف عنَّـا يـا كريـم.[3]

يقـول النـووي: وأعلـم أن هـذا الحديـث عـام مخصـوص، وموضـع التخصيـص قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (ومـن أصـاب شـيئاً مـن ذلـك...إلى آخـره) المـراد بـه مـا سـوى الـشرك، وإلا فالـشرك لا يغفـر لـه.

وفي هـذا الحديـث فوائـد، منهـا: تحريـم هـذه المذكـورات، ومـا في معناهـا، ومنهـا الدلالـة لمذهـب أهـل الحـق، أن المعـاصي غـير الكفـر لا يقطـع لصاحبهـا بالنـار إذا مـات ولم يتـب منهـا، بـل هـو بمشـيئة اللـه تعـالى؛ إن شـاء عفـا عنـه، وإن شـاء عذبـه.[4]

1. صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.
2. عمدة القاري: 24/ 37.
3. عمدة القاري: 17/ 33.
4. صحيح مسلم بشرح النووي: 11/ 223 - 224.

بيعة النساء بالكلام:

ثبت في الأحاديث الصحيحة، أن مبايعة النساء، لم تكن باليد كما الرجال، بل اقتصرت على الكلام باللسان، دون مصافحة بالأيدي، حسب إخبار أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بقولها: (يُبَايِعُ النِّسَاءَ بِالْكَلَامِ) ثم تأكيدها هذا الإخبار بقولها: (وما مَسَّتْ يَدُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدَ امْرَأَةٍ إلا امْرَأَةً يَمْلِكُهَا).[1]

وفي صحيح مسلم عن عُرْوَةَ: أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ عن بَيْعَةِ النِّسَاءِ، قالت: (ما مَسَّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بيده امْرَأَةً قَطُّ إلا أَنْ يَأْخُذَ عليها، فإذا أَخَذَ عليها، فَأَعْطَتْهُ، قال: اذْهَبِي فَقَدْ بَايَعْتُكِ)[2]

وروي عن أُمِّ عَطِيَّةَ، رضي الله عنها، قالت: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم فَقَرَأَ عَلَيْنَا: {أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شيئاً} وَنَهَانَا عن النِّيَاحَةِ، فَقَبَضَتْ امْرَأَةٌ يَدَهَا، فقالت: أَسْعَدَتْنِي فُلَانَةُ أُرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا، فما قال لها النبي، صلى الله عليه وسلم، شيئاً، فَانْطَلَقَتْ وَرَجَعَتْ فَبَايَعَهَا)[3]

وفي عمدة القاري أن قوله: (فقبضت امرأة يدها) قال الكرماني: فإن قلت: هذا مشعر بأن البيعة لهن كانت أيضاً باليد، قلت: لعلهن كن يشرن باليد عند المبايعة بلا مماسة، وقولها: (أسعدتني)، أي في النياحة، (وأنا أريد أن أجزيها)، أي أكافئها بالنياحة، وذهبت لأن تساعدها أو لغيره، ورجعت وبايعها، فإن قلت: لم ما قال شيئاً لها، وسكت عنها، ولم يزجرها؟ قلت: لعله عرف أنه ليس من جنس النياحات المحرمة، أو ما التفت إلى كلامها، حيث بين حكمها لهن، أو كان جوازها من خصائصها.[4]

فهذه تأملات وتذكيرات في بعض جوانب ومجالات بيعة النساء، التي عقدها الرسول الأسوة، محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بيعة النساء.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كيفية بيعة النساء.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الممتحنة، باب {إذا جاءك المؤمنات يبايعنك} (الممتحنة: 12).
4. عمدة القاري: 24/ 277.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يوصي بالنساء في خطبة الوداع
الحلقة الأولى

أخرج مسلم في صحيحه تحت بَاب حِجَّةِ النبي، صلى الله عليه وسلم، نص خطبته، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة، التي تضمنت في ثناياها قوله: (فَاتَّقُوا اللَّهَ في النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذلك فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غير مُبرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وقد تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللَّهِ)[1]

حجة الوداع:

ويطلق عليها أيضاً حجة الإسلام وحجة البلاغ، هي الحجة الوحيدة التي أداها صلى الله عليه وسلم، في السنة العاشرة للهجرة، وكانت نبراساً للمسلمين على مر العصور، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض وما عليها، فعن جَابِر قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يرمي على رَاحِلَتِهِ يوم النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذه)[2]، وفعلاً لم يحج النبي، صلى الله عليه وسلم، غير هذه الحجة، وودع المسلمين فيها بخطبة ركزت محاورها على قضايا دينية بارزة، كانت منها قضية التوصية بالنساء، وبيان أن لهن حقوقاً على أزواجهن، وعليهن واجبات لهم.

مناهضة العنف ضد المرأة:

حددت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم 54 /134 يوم 25 نوفمبر/ تشرين ثاني "اليوم العالمي للقضاء على العنف ضد المرأة".

يوم 10 كانون الأول/ ديسمبر من كل عام، هو يوم حقوق الإنسان، تسبقه فعاليات

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: «لتأخذوا مناسككم».

حملة الـ 16 يوم للقضاء على العنف ضد المرأة، التي تبدأ من 25 تشرين الثاني/نوفمبر وتستمر إلى 10 كانون الأول/ ديسمبر، من كل عام.

وقد أشارت الهيئة العامة للأمم المتحدة إلى العنف ضد المرأة بأنه جائحة عالمية بأشكال عدة، سواء كان جسدياً، أم جنسياً، أم نفسياً، ويحدث في الأماكن العامة والخاصة، وعرّفته عام 1993م في إعلان القضاء على العنف ضد المرأة: بأنه أي فعل عنيف قائم على النوع الاجتماعي، يؤدي أو يُحتمل أن يؤدي إلى: أذى جسدي، أو جنسي، أو ذهني، أو معاناة للنساء، بما يتضمن التهديد بأفعال كهذه، والإكراه أو حرمان المرأة اعتباطياً من حريتها، سواء على صعيد شخصي أم عام.

وفي ضوء المشاهد والملموس من واقع العنف ضد المرأة حسب ما يرشح عنه من أخبار ومعطيات، فإن عنفاً منوعاً يقع ضد المرأة العربية والمسلمة، يتوزع بين الجسدي والنفسي والجنسي والاقتصادي، ويشمل كل نوع من هذه الأنواع صوراً تتكرر، وأخرى مختلفة، وللوقوف على مسببات هذا العنف والموقف منه، ينبغي التقيد بالموضوعية والإنصاف ودقة التشخيص، إذ إن هناك من يهول هذه القضية، مقابل من يهون ويبسط، وهناك من يستغل قضايا ذات صلة لحملات تحريض ظالمة ضد الرجال أو الأديان والشرائع والقيم.

الإسلام ومحاربة العنف ضد المرأة:

من الأسئلة التي ينبغي طرحها حيال قضية مناهضة العنف ضد النساء: هل يمكن التغاضي عن العنف الممارس ضد المرأة في المجتمعات العربية والمسلمة؟ ومن يتحمل المسؤولية عن هذا العنف؟ وما العلاج القويم لهذا السلوك المنحرف؟

وتتلخص الإجابة عن هذه الأسئلة بأن العنف موجود، ومن العبث إنكاره أو التغاضي عنه، أو التهوين من ويلاته، لكن المسؤولية عن وجوده تحتاج إلى نظر ثاقب وعادل، إذ إن الإسلام بعقيدته وقيمه وشريعته ينبذه ويرفضه ويقاومه، وليس من الحق بحال أن يتم تحميله المسؤولية عن واقع يرفضه وينكره، وتمسك بعض الناس بظاهر بعض الأحداث أو النصوص في هذا المجال للانقضاض على الإسلام، والتأليب عليه، والسعي

لتشويهه، أمر مغرض ومشبوه، ومرفوض جملة وتفصيلاً، فأسباب ممارسة العنف ضد النساء ترجع إلى تربية خاطئة، وعادات بالية، وقيم منحرفة، وليس إلى دين أنزله رب العالمين بلسان عربي مبين، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى خير الدارين، وشتان بين سلوك الناس المنتمين إلى الإسلام بالأسماء، والمخالفين لتعاليمه باطناً وظاهراً، فإلى الإسلام يرجع في الحكم على مدى التقيد والالتزام وليس العكس، فلا يحكم على الإسلام من سلوك المسلمين إلا من متسرعين في الأحكام، أو متصيدين للعثرات والشبهات، والعلاج الفاعل لمشكلة العنف الظالم ضد النساء يتمثل في الاحتكام لشرع الله القويم، المتسم بالعدل والحق والوضوح، الذي ينظر فيه إلى الناس على أنهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، مصداقاً لقوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1]

فالأكرم عند الله والأفضل ليس ابن جنس من الناس، أو صاحب لون معين، أو الذكر، أو الأنثى، إنما هو الأتقى، فلو كانت المرأة هي الأتقى لغلبت الرجال في الأفضلية والمقام، والله لما ضرب مثلاً في قرآنه الكريم للذين آمنوا ضربه بنساء، فقال عز وجل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَت فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[2]

سائلين الله العلي القدير العون على متابعة الحديث عن الحث على تقوى الله في النساء، وإكرامهن ونبذ العنف ضدهن، في ضوء الهدي القرآني، وسنة النبي الهادي، محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

1. الحجرات:13.
2. التحريم: 11 - 12.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يوصي بالنساء في خطبة الوداع
الحلقة الثانية

عـن أَنَـسِ بـن مَالِـكٍ قـال: (كان النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في مَسِـيرٍ لـه فَحَـدَا الْحَـادِي، فقـال النبـي، صـلى اللـه عليه وسـلم: ارْفُـقْ يـا أَنْجَشَـةُ، وَيْحَـكَ بِالْقَوَارِيـرِ).(*)

تعرضـت الحلقـة السـابقة لتعريـف مجمـل بحجـة الـوداع التـي أوصى الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في خطبتهـا بتقـوى اللـه في النسـاء، وربطـت الحلقـة ذلـك بمناهضـة العنـف ضد النسـاء، الـذي حـددت الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة يومـاً سـنوياً لـه، يوافـق 25 تشريـن ثـاني، وأشـارت الهيئـة العامـة للأمـم المتحـدة إلى العنـف ضـد المـرأة، بأنـه جائحـة عالميـة بأشـكال عـدة، سـواء كان جسـدياً، أم جنسـياً، أم نفسـياً، ويطـرأ في كل مـن الأماكـن العامـة والخاصـة، وتمـت الدعـوة إلى التقيـد بالموضوعيـة والإنصـاف ودقـة التشـخيص عنـد التطـرق لهـذه القضيـة، إذ إن هنـاك مـن يهـول هـذه القضيـة، مقابـل مـن يهونهـا ويبسـطها، وهنـاك مـن يسـتغل قضايـا ذات صلـة لحمـلات تحريـض ظالمـة ضـد الرجـال أو الأديـان والشرائـع والقيـم، مشـيرة إلى أن الإسـلام يحـارب العنـف ضـد المـرأة، الـذي لا يمكـن إنـكار وجـوده في المجتمعـات العربيـة والمسـلمة، لكـن المسـؤولية عـن وجـوده تحتـاج إلى نظـر ثاقـب وعـادل، إذ إن الإسـلام بعقيدتـه وقيمـه وشريعتـه ينبـذ العنـف ويقاومـه، وليـس مـن الحـق بحـال أن يتـم تحميلـه المسـؤولية عـن واقـع يرفضـه وينكـره، ومـن مبـادئ الإسـلام أن الأكـرم عنـد اللـه والأفضـل ليـس ابـن جنـس مـن النـاس، أو صاحـب لـون معـين، أو الذكـر أو الأنثـى، إنمـا الأتقى.

الدعوة للرفق بالنساء:

حديـث أنـس بـن مالـك المثبـت نصـه أعـلاه يتضمـن أمـر النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بالرفـق بالنسـاء، فأنجشـة كان حاديـاً، وخـلال أدائـه للحـدي في حـضرة الرسـول، صـلى اللـه

* صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب.

عليه وسلم، أمره بأن يرفق بالقوارير - يعني النساء-. ومن الروايات الصحيحة التوضيحية أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (رُوَيْدَكَ يا أَنْجَشَةُ، سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ، قال أبو قِلَابَةَ: يَعْنِي النِّسَاءَ، وفي رواية أخرى أن أَنْجَشَة، وكان حَسَنَ الصَّوْتِ، فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم: (رُوَيْدَكَ يا أَنْجَشَةُ، لَا تَكْسِرْ الْقَوَارِيرَ) قال قَتَادَةُ: يَعْنِي ضَعَفَةَ النِّسَاءِ).[1]

يبين العيني أن (القوارير) جمع قارورة من الزجاج، سميت بها لاستقرار الشراب فيها، وقال ابن الأثير: شبه النساء بالقوارير من الزجاج؛ لأنه يسرع إليها الكسر، وكان أنجشة يحدو وينشد القريض والرجز، فلم يأمن أن يصيبهن أو يقع في قلوبهن حداؤه، فأمره بالكف عن ذلك، وفي المثل: (الغناء رقية الزنى)، وقيل: أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت في المشي واشتدت، فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك؛ لأن النساء يضعفن من شدة الحركة.

وقال الرامهرمزي: كنى عن النساء بالقوارير؛ لرقتهن وضعفهن عن الحركة، والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية، وقيل سقهن كسوقك القوارير لو كانت محمولة على الإبل، وقيل: شبههن بالقوارير لسرعة انقلابهن عن الرضا، وقلة دوامهن على الوفاء، كالقوارير يسرع إليها الكسر، ولا تقبل الجبر. وقال الطيبي: هي استعارة؛ لأن المشبه به غير مذكور، والقرينة حالية لا مقالية، ولفظ الكسر ترشيح لها، والله أعلم.[2]

فالوصية بالنساء بهذا بلغت حد العناية بمشاعرهن ونوازعهن الداخلية، على سبيل الرفق والاهتمام ومراعاة الطبيعة الفطرية والخلقية، وكثيراً ما يستذكر العقلاء هذه الوصية خلال الحث على اللطف بالنساء، وتجنب القسوة معهن.

اتَّقُوا اللَّهَ في النِّسَاءِ:

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في خطبة حجة الوداع خاطب المسلمين آمراً، فقال:

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب.
2. عمدة القاري: 22 /186.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ)[1]

يقول الإمام النووي: أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين في خطبة حجة الوداع بأن يتقوا الله في النساء، فيه الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن، ومعاشرتهن بالمعروف، وقوله صلى الله عليه وسلم: (أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ) هكذا هو في كثير من الأصول، وفي بعضها: (بأمانة الله)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ) قيل: معناه قوله تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}[2]، وقيل: المراد كلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم، وقيل المراد بإباحة الله، والكلمة قوله تعالى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}[3]، وهذا الثالث هو الصحيح، حسب رأي النووي، وبالأول قال الخطابي والهروي وغيرهما، وقيل: المراد بالكلمة الإيجاب والقبول، ومعناه على هذا بالكلمة التي أمر الله تعالى بها، والله أعلم.[4]

جاء في عون المعبود أن قوله: (فاتقوا الله في النساء) أي في حقهن، والفاء فصيحة، وهو معطوف على ما سبق من حيث المعنى؛ أي اتقوا الله في استباحة الدماء، ونهب الأموال، وفي النساء، (فإنكم أخذتموهن بأمانة الله) أي بعهده من الرفق وحسن العشرة، (واستحللتم فروجهن بكلمة الله) أي بشرعه، أو بأمره وحكمه.[5]

سائلين الله العلي القدير العون على متابعة الحديث عن الحث على تقوى الله في النساء، وإكرامهن ونبذ العنف ضدهن، في ضوء الهدي القرآني، وسنة النبي الهادي، محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. البقرة: 229.
3. النساء:3.
4. صحيح مسلم بشرح النووي:8 /183.
5. عون المعبود:5 /263.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يوصي بالنساء في خطبة الوداع
الحلقة الثالثة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مؤمنة، إن كَرِهَ منها خُلُقًا رضي منها آخَر، أو قال غَيْرَهُ).(*)

تعرضت الحلقة السابقة للرفق بالنساء، من خلال أمر (الحادي أنجشة) بأن يرفق بالقوارير - يعني النساء-. وكنى عن النساء بالقوارير؛ لرقتهن ولطافتهن وضعف بنيتهن، وهذه الوصية بالنساء عنيت بمشاعرهن ونوازعهن الفطرية والداخلية، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر المسلمين في خطبة حجة الوداع بأن يتقوا الله في النساء، مما يعني الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن، ومعاشرتهن بالمعروف.

النهي عن بُغْضِ النساء:

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، المثبت نصه أعلاه، يوصي بالنساء من خلال النهي عن المسارعة لكرههن، ويضع عليه الصلاة والسلام، معادلة عادلة مقنعة ليأخذ المؤمن المستهدف بهذا الأمر، بقوله: (إن كَرِهَ منها خُلُقًا رضي منها آخَر) فالإنسان بطبيعته خطاء، وقد تصدر عن المرأة تصرفات أو أقوال يكرهها زوجها، وبموجب المعادلة المذكورة ينبغي للزوج أن يستذكر عند نفوره من سلوك لامرأته إيجابياتها، فمن الإجحاف والظلم التركيز على الخطأ الحاضر، وتجاهل الإيجابيات الأخرى، ومن اللافت أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر في حديثه الشريف هذا خُلُقين للمرأة، أحدهما يكرهه الزوج، والآخر يحبه ويرضاه، بمعنى أن من كانت نسبة رضاه عن امرأته تعادل نسبة كرهه لها، فينبغي له أن يعدل عن كرهها، ولم يرد استخدام

* صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

لفظ (يفرك) للتعبير عن الكره في أحاديث الصحيحين سوى في هذا النص الكريم، قال ابن المثنى: الفرك البغض.[1]

وجاء في صحيح مسلم بشرح النووي عن أهل اللغة: فِركه بكسر الراء، يفركه بفتحها، إذا أبغضه، والفَرْك بفتح الفاء وإسكان الراء: البغض. قال القاضي عياض: هذا ليس على النهي، بل هو خبر، أي لا يقع منه بغض تام لها، قال: وبغض الرجال للنساء خلاف بغضهن لهم، ولهذا قال: إن كره منها خلقاً رضي منها آخر، ويضعف النووي كلام القاضي، ويقول: بل الصواب أنه نهي؛ أي ينبغي أن لا يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقاً يكرهه، وجد فيها خلقاً مرضياً، بأن تكون شرسة الخلق، لكنها ذات دين، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك.[2]

وفي الآية القرآنية التاسعة عشرة من سورة النساء، توجيه رباني ينفر من كره النساء، بعلة أن المرء يمكن أن يكره شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، فقال تعالى: {... وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً}[3]

يبين الرازي بأن للضمير في قوله: {فِيهِ} وجهين:

الأول: المعنى أنكم إن كرهتم صحبتهن فأمسكوهن بالمعروف، فعسى أن يكون في صحبتهن الخير الكثير، ومن قال بهذا القول فسر الخير الكثير تارة بولد يحصل، فتنقلب الكراهة محبة، والنفرة رغبة، وتارة بأنه لما كره صحبتها، ثم إنه يحمل ذلك المكروه طلباً لثواب الله، وأنفق عليها وأحسن إليها، على خلاف الطبع، استحق الثواب الجزيل في العقبى، والثناء الجميل في الدنيا.

الثاني: أن يكون المعنى إن كرهتموهن ورغبتم في مفارقتهن، فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً؛ وذلك بأن تتخلص تلك المرأة من هذا الزوج، وتجد زوجاً

1. سنن البيهقي الكبرى:7/ 295.
2. صحيح مسلم بشرح النووي:10/ 58 - 59.
3. النساء:19.

خـيراً منـه، ونظـيره قولـه تعـالى: {وَإِن يَتَفَرَّقَـا يُغْـنِ اللَّـهُ كُلاًّ مِّـن سَـعَتِهِ}[1]، وهـذا قـول أبي بكـر الأصـم، قـال القـاضي: وهـذا بعيـد؛ لأنـه تعـالى حـث بمـا ذكـر عـلى سـبيل الاسـتمرار في الصحبـة، فكيـف يريـد بذلـك المفارقـة.[2]

معاشرة النساء بالمعروف:

أمـر اللـه بمعـاشرة النسـاء والإنفـاق عليهـن بالمعـروف، فقـال تعـالى: {...وَلَهُـنَّ مِثْـلُ الَّـذِي عَلَيْهِـنَّ بِالْمَعْـرُوفِ وَلِلرِّجَـالِ عَلَيْهِـنَّ دَرَجَـةٌ وَاللّـهُ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ}[3]

يقـول الـرازي: إن المقصـود مـن الزوجـين لا يتـم إلا إذا كان كل واحـد منهـما مراعيـاً حـق الآخـر، وتلـك الحقـوق المشـتركة كثـيرة:

أحدهـا: أن الـزوج كالأمـير والراعـي، والزوجـة كالمأمـور والرعيـة، فيجـب عـلى الـزوج بسـبب كونـه أمـيراً وراعيـاً أن يقـوم بحقهـا ومصالحهـا، ويجـب عليهـا في مقابلـة ذلـك إظهـار الانقيـاد والطاعـة للزوج.

وثانيهـا: روي عـن ابـن عبـاس، أنـه قـال: (إني لأتزيـن لامـرأتي كـما تتزيـن لي) لقولـه تعـالى: {وَلَهُـنَّ مِثْـلُ الَّـذِي عَلَيْهِـنَّ}.

وثالثهـا: ولهـن عـلى الـزوج مـن إرادة الإصـلاح عنـد المراجعـة، مثـل مـا عليهـن مـن تـرك الكتـمان فيـما خلـق اللـه في أرحامهـن، وهـذا أوفـق لمقدمـة الآيـة.[4]

وفي الآيـة القرآنيـة التاسـعة عـشرة مـن سـورة النسـاء آنفـة الذكـر أمـر بمعـاشرة النسـاء بالمعـروف، فيقـول تعالى:{...وَعَاشِرُوهُـنَّ بِالْمَعْـرُوفِ...}[5]

وحتـى عنـد الطـلاق وحـدوث الانفصـال بـين الزوجـين ينبغـي أن يراعـى المعـروف في معاملـة النسـاء، وأداء الحقـوق لهـن، فقـال عـز وجـل: {لا جُنَـاحَ عَلَيْكُـمْ إِن طَلَّقْتُـمُ النِّسَـاء مَـا لَـمْ تَمَسُّـوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُـواْ لَهُـنَّ فَرِيضَـةً وَمَتِّعُوهُـنَّ عَـلَى الْمُوسِـعِ قَـدَرُهُ وَعَـلَى الْمُقْـتِرِ قَـدْرُهُ

1. النساء: 130.
2. التفسير الكبير:10 /11.
3. البقرة:228.
4. التفسير الكبير: 6 /81.
5. النساء:19.

مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ}[1]، وقال سبحانه: {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}[2]

يبين الزمخشري أن الأمر هنا بالمتاع عم المطلقات بإيجاب المتعة لهن بعدما أوجبها لواحدة منهن، وهي المطلقة غير المدخول بها، وقال: {حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}[3]، كما قال ثمة: {حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ}[4].

وعن سعيد بن جبير وأبي العالية والزهري، أنها واجبة لكل مطلقة، وقيل: قد تناولت التمتيع الواجب والمستحب جميعاً، وقيل: المراد بالمتاع نفقة العدة، والله تعالى أعلم.[5]

وبعد الوقوف عند ما تيسر من أبعاد الأمر بمعاشرة النساء والإنفاق عليهن بالمعروف، والنهي عن كرههن في ظل ما لهن من إيجابيات وسلبيات، نختم في هذه المرحلة الحديث عن الأمر بتقوى الله في النساء، وإكرامهن، ونبذ العنف ضدهن، في ضوء الهدي القرآني، وسنة النبي الهادي، محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. البقرة:236.
2. البقرة:241.
3. البقرة:241.
4. الكشاف: 1 /317 - 318.
5. البقرة:236.

الفصل الرابع

زهد ورقائق

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الأولى	119
.2	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الثانية	122
,3	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الثالثة	125
.4	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الرابعة	128
.5	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الخامسة والأخيرة	131
.6	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا الحلقة الأولى	134
.7	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا الحلقة الثانية	137
.8	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا الحلقة الثالثة والأخيرة	149

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها
الحلقة الأولى

عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ في سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ في سَبِيلِ اللَّهِ أو الْغَدْوَةُ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها)[1]

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا ثلاثة أمور، يفوق فضل كل منها الدنيا وما عليها، أولها:

الرباط في سبيل الله:

الرباط من ربط الشيء يربطه، ويربطه ربطاً، فهو مربوط وربيط شده، والرباط ما رُبِطَ به، والجمع رُبُط، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً، والرباط المواظبة على الأمر.[2]

ختم الله سبحانه سورة آل عمران بأمر المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [3]

يقول الرازي في التفسير الكبير: واعلم أن الإنسان، وإن تكلف الصبر والمصابرة، إلا أن فيه أخلاقاً ذميمة تحمل على أضدادها، وهي: الشهوة، والغضب، والحرص، والإنسان ما لم يكن مشتغلاً طول عمره بمجاهدتها، وقهرها، لا يمكنه الإتيان بالصبر والمصابرة، فلهذا قال: {وَرَابِطُوا} ولما كانت هذه المجاهدة فعلاً من الأفعال، ولا بدَّ للإنسان في كل فعل يفعله من داعية وغرض، وجب أن يكون للإنسان في هذه المجاهدة غرض وباعث،

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.
2. لسان العرب: 6 /82.
3. آل عمران:200.

وذلك هو تقوى الله، لنيل الفلاح والنجاح، فلهذا قال: {وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.[1]

وفي سورة الأنفال أمر سبحانه بالإعداد للقاء الأعداء، ومحاربتهم وصد عدوانهم، ومن ضمن الإعداد المطلوب لهذه الغاية رباط الخيل، فقال جل شأنه: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}[2]

يبين الزمخشري أن معنى القوة في هذه الآية الكريمة، كل ما يتقوى به في الحرب، من عُدِدِها، واستشهد بحديث عُقْبَة بن عَامِر، حيث قال: (سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو على الْمِنْبَرِ يقول: {وَأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُمْ من قُوَّةٍ} ألا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)[3]، ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله، وعن عكرمة هي الحصون، والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المرابطة، ويجوز أن يكون جمع ربيط، كفصيل وفصال، وقرأ الحسن: {ومن ربط الخيل} بضم الباء وسكونها، جمع رباط، ويجوز أن يكون قوله: {وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به، كقوله: {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}[4]، وعن ابن سيرين، رحمه الله، أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله في الحصون؟ فقال: يشتري به الخيل، فترابط في سبيل الله، ويغزي عليها، فقيل له: إنما أوصى في الحصون، فقال: ألم تسمع قول الشاعر: أَنَّ الْحُصُونَ الْخَيْلُ لاَ مَدَرُ الْقُرَى.[5]

فضل الرباط في سبيل الله:

بلغت إشادة النبي، صلى الله عليه وسلم، بالرباط في سبيل الله، أن فضل يومه على الدنيا وما عليها، وفي روايات أخرى فضله عن صيام شهر وقيامه، فعن سَلْمَانَ، قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، خَيْرٌ من صِيَامِ شَهْرٍ

1. التفسير الكبير: 9 /126.
2. الأنفال:60.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي، والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه.
4. البقرة: 98.
5. الكشاف: 2 /220.

وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عليه عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُهُ، وأجري عليه رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ) [1]

جاء في تفسير القرطبي: أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، وقارن القرطبي بين الرباط في سبيل الله، وبين الأعمال التي تبقى للعبد بعد مماته، وهي كما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ، إلا من ثَلَاثَةٍ: إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) [2]

فقال القرطبي: إن الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح يدعو لأبويه، ينقطع ذلك بنفاد الصدقات، وذهاب العلم، وموت الولد، والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب، فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة، وهذا لأن أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو، والتحرز منه بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام، وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة.[3]

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا للرباط في سبيله على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يحفظ المرابطين، وبخاصة في المسجد الأقصى المبارك، وأن ييسر جل شأنه في الحلقة القادمة متابعة الحديث عن الرباط وفضله، والوقوف عند مزيد من الأمور التي يفوق فضلها الدنيا وما عليها، حسب المبين في حديث النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل.
2. صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته
3. تفسير القرطبي: 4 /325.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها
الحلقة الثانية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ)(*)

وقفت الحلقة السابقة عند حديث سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، عن رَسُولِ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، الذي أخبر فيه عن ثلاثة أمور يعدل كل منها الدنيا وما عليها، وهي: الرباط في سبيل الله، وَمَوْضِعُ السَّوْطِ من الْجَنَّةِ، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ في سَبِيلِ اللَّهِ أو الْغَدْوَةُ، وتم بيان معنى الرباط في سبيل الله، الذي يعني ملازمة ثغر العدو، والله سبحانه ختم سورة آل عمران بأمر المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، وفي سورة الأنفال أمر سبحانه بالإعداد للقاء الأعداء، ومحاربتهم وصد عدوانهم، ومن ضمن الإعداد المطلوب لهذه الغاية رباط الخيل، وبلغت إشادة النبي، صلى الله عليه وسلم، بالرباط في سبيل الله، أن فضل اليوم به على الدنيا وما عليها، وهو خَيْرٌ من صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ المرابط جَرَى عليه عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُهُ، وأجرى عليه رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ، والرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت.

انتظار الصلاة بعد الصلاة رباط:

من صور الرباط المشروعة ذات الفضل والقيمة عند الله تعالى، انتظار الصلاة بعد الصلاة، حسب المبين في حديث أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، المثبت نصه أعلاه، وفي رواية كررت عبارة: (فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ)

* صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.

وبالنسبة إلى معاني الألفاظ والعبارات المتضمنة في الحديث أعلاه، يذكر النووي عن القاضي عياض أن (محو الخطايا) كناية عن غفرانها، قال: ويحتمل محوها من كتاب الحفظة، ويكون دليلاً على غفرانها، (ورفع الدرجات) إعلاء المنازل في الجنة، (وإسباغ الوضوء) تمامه، (والمكاره) تكون بشدة البرد، وألم الجسم، ونحو ذلك، (وكثرة الخطا) تكون ببعد الدار، وكثرة التكرار.

وقوله: (فذلكم الرباط) أي الرباط المرغب فيه، وأصل الرباط الحبس على الشيء، كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة، قيل: ويحتمل أنه أفضل الرباط، كما قيل: الجهاد جهاد النفس، ويحتمل أنه الرباط المتيسر الممكن، أي أنه من أنواع الرباط.[1]

وفيما يتعلق بانتظار الصلاة بعد الصلاة، جاء في شرح الزرقاني، قول المظهري: أي إذا صلى بالجماعة ينتظر صلاة أخرى، يتعلق ذكره لها، إما بأن يجلس في المسجد ينتظرها، أو يكون في بيته، أو يشتغل بكسبه، وقلبه متعلق بها، ينتظر حضورها، فكل ذلك داخل في هذا الحكم، ويؤيده حديث (وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ؛ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ)[2].[3]

المعلق قلبه في المساجد:

الإشادة بالمتعلق قلبه في المسجد، وردت في حديث بيان السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ؛ اجْتَمَعَا عليه، وَتَفَرَّقَا عليه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)[4]

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 3 /141.
2. سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في الحب في الله، وصححه الألباني.
3. شرح الزرقاني:1 /462 - 463.
4. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة...

جاء في عمدة القاري، بيان الكرماني بالنسبة إلى حرف الجر (في) في قوله: (وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ) أي بالمساجد، وحروف الجر بعضها يقوم مقام بعض، ومعناه شديد الحب لها، والملازمة للجماعة فيها، وشدة التعلق في المساجد ينال صاحبها هذا الفضل، وإن كان خارجاً عنه، وتعلق قلبه بالمساجد كناية عن انتظاره أوقات الصلوات، فلا يصلي صلاة ويخرج منه إلّا وهو منتظر وقت صلاة أخرى، حتى يصلي فيه، وهذا يستلزم صلاته أيضاً بالجماعة.[1]

تكرار التلفظ بعبارة (فذلكم الرباط):

جاء في شرح الزرقاني أن ذكره: (فذلكم الرباط) ثلاثاً على معنى التعظيم لشأنه، أو الإبهام، أو غير ذلك، قاله الباجي، وقيل: أراد أن ثوابه كثواب الرباط.

وقال الطيبي في قوله: (فذلكم الرباط) أتي باسم الإشارة الدال على بعد منزلة المشار إليه، في مقام التعظيم، وإيقاع الرباط المحلى بلام الجنس، خبراً لاسم الإشارة، كما في قوله: {الم* ذلك الكتاب...}[2]، إذ التعريف في الخبر للجنس، ولما أريد تقرير ذلك مزيد تقرير واهتمام بشأنه، كرره ثلاثاً، وتخصيصها بالثلاث لأن الأعمال المذكورة في الحديث ثلاث، وأتى باسم الإشارة إشارة إلى تعظيمه بالبعد.[3]

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا للرباط في سبيله على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يحفظ المرابطين، وبخاصة في المسجد الأقصى المبارك، وأن ييسر جل شأنه في الحلقة القادمة متابعة الحديث عن الرباط وفضله، والوقوف عند مزيد من الأمور التي تفوق في فضلها الدنيا وما عليها، حسب المبين في حديث النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري: 5 /178.
2. البقرة: 1 - 2.
3. شرح الزرقاني:1 /463.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها
الحلقة الثالثة

عـن أَنَـسِ بـن مَالِـكٍ، رضي اللـه عنـه، عـن النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (لَغَـدْوَةٌ في سَـبِيلِ اللَّـهِ أو رَوْحَـةٌ خَـيْرٌ مـن الدُّنْيَـا ومـا فيهـا)[1]

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد صـورة مـن صـور الربـاط المـشروع، ذي الفضـل والقيمـة عنـد اللـه تعـالى، والمتمثلـة في انتظـار الصـلاة بعـد الصـلاة، حسـب قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، عنهـا: (فَذَلِكُـم الرِّبَـاطُ) أي الربـاط المرغـب فيـه، وأصلـه الحبـس عـلى الـشيء، كأنـه حبـس نفسـه عـلى هـذه الطاعـة، وقيـل: ويحتمـل أنـه أفضـل الربـاط، كـما قيـل: الجهـاد جهـاد النفـس، ويحتمـل أنـه الربـاط المتيـسر الممكـن، أي أنـه مـن أنـواع الربـاط.

وقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (فذلكـم الربـاط) يحتمـل أن يريـد تفضيـل هـذا الربـاط عـلى غـيره مـن الربـاط في الثغـور، وتكـرار عبـارة: (فذلكـم الربـاط) ثلاثـاً عـلى معنـى التعظيـم لشـأنه، أو الإبهـام، أو غـير ذلـك، وقيـل: أراد أن ثوابـه كثـواب الربـاط.

ما عليها وما فيها:

حديـث أنـس المثبـت نصـه أعـلاه، يؤكـد مـا جـاء في حديـث سـهل بـن سـعد سـالف الذكـر، بشـأن فضـل الغـدوة والروحـة في سـبيل اللـه، وأنهـما خَـيْرٌ مـن الدُّنْيَـا ومـا فيهـا، مـع وجـود فـارق بسـيط بـين النصـين، حيـث ذكـر في حديـث سـعد أنهـما خـير مـن الدنيـا ومـا عليهـا، وفي حديـث أنـس ذكـر أنهـما خـير مـن الدنيـا ومـا فيهـا، يعلـل الإمـام العينـي هـذا الاختـلاف، فيقـول: قولـه: (ومـا عليهـا) أي عـلى الدنيـا، وفائـدة العـدول عـن قولـه: (ومـا فيهـا) هـو أن معنـى الاسـتعلاء أعـم مـن الظرفيـة، وأقـوى، فقصـده زيـادة المبالغـة.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله...
2. عمدة القاري: 14 /176.

الغدوة والروحة:

ذكـر القـرآن الكريـم الغـدوة والروحـة، فقـال تعـالى: {وَلِسُـلَيْمَانَ الرِّيـحَ غُدُوُّهَـا شَـهْرٌ وَرَوَاحُهَـا شَـهْرٌ...}[1] أي كانـت تسـير بـه بالغـداة مسـيرة شـهر، وبالعـشي مسـيرة شـهر.[2] فالله سـخر لسـليمان، عليـه السـلام، الريـح تجـري بأمـره وتحملـه، وتحمـل مـا معـه جميعـاً، وتقطـع المسـافة البعيـدة جـداً في مـدة يسـيرة، فتسـير في اليـوم مسـيرة شـهرين {غدوهـا شـهر} أي أول النهـار إلى الـزوال، {ورواحهـا شـهر} أي الـزوال إلى آخـر النهـار.[3]

قـال الحافـظ: الغـدوة المـرة الواحـدة مـن الغـدو، وهـو الخـروج في أي وقـت كان مـن أول النهـار إلى انتصافـه، والروحـة المـرة الواحـدة مـن الـرواح، وهـو الخـروج في أي وقـت كان، مـن زوال الشـمس إلى غروبهـا.[4]

يقـول النـووي: (أو) هنـا للتقسـيم لا للشـك، ومعنـاه أن الروحـة يحصـل بهـا هـذا الثـواب، وكـذا الغـدوة، والظاهـر أنـه لا يختـص ذلـك بالغـدو والـرواح مـن بلدتـه، بـل يحصـل هـذا الثـواب بـكل غـدوة أو روحـة في طريقـه إلى الغـزو، وكـذا غـدوة وروحـة في موضـع القتـال؛ لأن الجميـع يسـمى غـدوة وروحـة في سـبيل اللـه، ومعنـى هـذا الحديـث أن فضـل الغـدوة والروحـة في سـبيل اللـه وثوابهـما خـير مـن نعيـم الدنيـا كلهـا لـو ملكهـا إنسـان، وتصـور تنعمـه بهـا كلهـا؛ لأنـه زائـل، ونعيـم الآخـرة بـاق، قـال القـاضي: وقيـل في معنـاه ومعنـى نظائـره مـن تمثيـل أمـور الآخـرة وثوابهـا بأمـور الدنيـا: إنهـا خـير مـن الدنيـا ومـا فيهـا، لـو ملكهـا إنسـان، وملـك مـا فيهـا جميعـه، وأنفقـه في أمـور الآخـرة، قـال: وليـس تمثيـل الباقـي بالفـاني عـلى ظاهـر إطلاقـه، واللـه أعلـم.[5]

---

1. سبأ: 12.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 3 /147.
3. تفسير السعدي: 1 /676.
4. تحفة الأحوذي: 5 /235.
5. صحيح مسلم بشرح النووي: 13 /26 - 27.

التذكير بفضل منازل الآخرة وثوابها في سياق الحديث عن منازل الشهداء:

عن أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم- وقد هَلَكَ حَارِثَةُ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ- فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، قد عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ من قَلْبِي، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ لم أَبْكِ عليه، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى ما أَصْنَعُ، فقال لها: (هَبِلْتِ؟! أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟!! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ في الْفِرْدَوْسِ الأعلى. وقال: غَدْوَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ، أو رَوْحَةٌ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ، أو مَوْضِعُ قَدَمٍ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً من نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرض لَأَضَاءَتْ ما بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ ما بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الْخِمَارَ- خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها)[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، انتهز فرصة المناقشة التي دارت بينه وبين أم الشهيد حارثة، ليبين فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، ومن جزاء من يستحقون الجنة نساؤها، فالمرأة منهن لو اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، جاء في عمدة القاري، أن قوله: (ريحاً) أي ريحاً طيبة، وفي رواية سعيد بن عامر لملأت الأرض ريح مسك، وقوله: (ولنصيفها) اللام فيه للتأكيد، والنصيف هو الخمار، وعن الأزهري: النصيف أيضاً يقال للخادم[2]، وإذا كان لنصيف المرأة من نساء الجنة هذا الفضل الذي يفوق خير الدنيا وما فيها، فكيف بالجنة نفسها وما فيها من نعيم واسع؟![3]

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا للرباط في سبيله على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يحفظ المرابطين، وبخاصة في المسجد الأقصى المبارك، وأن ييسر جل شأنه في الحلقة القادمة متابعة الحديث عن مزيد من الأمور التي تفوق في فضلها الدنيا وما عليها، حسب المبين في حديث النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.
2. عمدة القاري: 23 /128.
3. تحفة الأحوذي: 5 /236.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها
الحلقة الرابعة

عن سَهْلٍ، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَوْضِعُ سَوْطٍ في الْجَنَّةِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها...)(*)

خلال الحديث عن أمور تفوق الدنيا في الفضل، وقفت الحلقة السابقة عند تعليل العدول عن قوله: (وما فيها) إلى قوله: (وما عليها) إذ إن لفظ (عليها) يفيد الاستعلاء، وهو أعم من الظرفية وأقوى، فقصده زيادة المبالغة.

وبالنسبة إلى معنى الغدوة والروحة، فالغدوة هي السير أول النهار إلى الزوال، والروحة السير من الزوال إلى آخر النهار، و(أو) في قوله: (لغدوة أو روحة) للتقسيم لا للشك، ومعناه أن الروحة يحصل بها هذا الثواب، وكذا الغدوة، والظاهر أنه لا يختص ذلك بالغدو والرواح من بلدته، بل يحصل هذا الثواب بكل غدوة أو روحة في طريقه إلى الغزو، وكذا غدوة وروحة في موضع القتال؛ لأن الجميع يسمى غدوة وروحة في سبيل الله، ومعنى هذا الحديث أن فضل الغدوة والروحة في سبيل الله وثوابهما خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها إنسان، وتصور تنعمه بها كلها؛ لأنه زائل، ونعيم الآخرة باق، وتم التذكير بفضل منازل الآخرة وثوابها في سياق الحديث عن منازل الشهداء، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، انتهز فرصة المناقشة التي دارت بينه وبين أم الشهيد حارثة، ليبين فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، فالمرأة من نساء الجنة لو اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت الأرض ريح مسك.

---

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب مثل الدنيا في الآخرة.

موضع السوط أو القوس من الجنة:

يبين النبي، صلى الله عليه وسلم، في مقطع حديثه المثبت نصه أعلاه فضل موضع السوط في الجنة، فهو خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وقوله: (موضع سوط في الجنة) أريد به قدر قليل منها، أو مقدار موضعه فيها.[1]

وخُص السوط بالذكر لأن من شأن الراكب إذا أراد النزول في منزل أن يلقي سوطه قبل أن ينزل، معلماً بذلك المكان الذي يريده، لئلا يسبقه إليه أحد.[2]

جاء في تحفة الأحوذي، أن المراد تسهيل أمر الدنيا، وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر عظيم مما في الدنيا جميعها، فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات، والنكتة في ذلك أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا، فنبه هذا المتأخر إلى أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل مما في الدنيا جميعه. [3]

وفي روايات جاء: (ولقاب قوس أحدكم) وبدلاً من قوله: (خير من الدنيا وما عليها) جاء: (خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عليه الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ) فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَقَابُ قَوْسٍ في الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عليه الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ، وقال: لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عليه الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ)[4]

ومعنى قاب قوس، أي قدره، والقاب بالقاف معناه القدر، وقيل: القاب ما بين مقبض القوس وسيته، وقيل: ما بين الوتر والقوس، وقيل: المراد بالقوس هنا الذراع الذي يقاس به، وكأن المعنى بيان فضل قدر الذراع من الجنة.[5]

المفاضلة بين نعيم الآخرة ومتاع الدنيا في هذا المقام:

جاء في عمدة القاري شرح المهلب لمعنى قوله: (خير من الدنيا) إذ قال: إن ثواب هذا

1. تحفة الأحوذي: 8 /290.
2. عمدة القاري: 15 /157.
3. تحفة الأحوذي: 5 /236.
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله...
5. تحفة الأحوذي: 5 /236.

الزمن القليل في الجنة خير من الدنيا كلها، وكذا قوله: (لقاب قوس أحدكم) أي موضع سوط في الجنة، يريد ما صغر في الجنة من المواضع كلها، من بساتينها وأراضيها، فأخبر أن قصير الزمان وصغير المكان في الآخرة، خير من طويل الزمان وكبير المكان في الدنيا، تزهيداً وتصغيراً لها، وترغيباً في الجهاد، إذ بهذا القليل يعطيه الله في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها، فكيف بمن أتعب فيه نفسه، وأنفق ماله؟! وقال غيره: معنى (خير من الدنيا) ثواب ذلك في الجنة خير من الدنيا، وقيل: خير من أن يتصدق بما في الدنيا إذا ملكها، وقيل: إذا ملك ما في الدنيا، وأنفقها في وجوه البر والطاعة، غير الجهاد.

وقال القرطبي: أي الثواب الحاصل على مشية واحدة في الجهاد، خير لصاحبه من الدنيا وما فيها لو جمعت له بحذافيرها.[1]

والله تعالى في قرآنه الكريم بين مراراً فضل نعيم الآخرة على متاع الدنيا وزينتها، ومن ذلك قوله عز وجل: {إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}[2]

ويقول تعالى:{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[3]

سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا للعمل بما يرضيه سبحانه، للفوز بالجنة ونعيمها، وأن ييسر جل شأنه في الحلقة القادمة متابعة الحديث عن مزيد من الأمور التي تفوق في فضلها الدنيا وما عليها، حسب المبين في حديث النبي محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري: 14 /92.
2. محمد: 36.
3. الحديد: 20.

الرسول الأسوة صلى الله عليه وسلم يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها

الحلقة الخامسة والأخيرة

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها).[1] وعنها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال في شَأْنِ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ: (لَهُمَا أَحَبُّ إليّ من الدُّنْيَا جميعاً).[2]

وقفت الحلقة السابقة عند بيان موضع السوط أو القوس من الجنة، حسب المبين في الأحاديث الصحيحة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فكل منها خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها، وأريد بقوله: (موضع سوط في الجنة) قدر قليل منها، أو مقدار موضعه فيها، ومعنى (قاب قوس) أي قدره، وخُص السوط بالذكر لأن من شأن الراكب إذا أراد النزول في منزل أن يلقي سوطه قبل أن ينزل، معلماً بذلك المكان الذي يريده، لئلا يسبقه إليه أحد. والمراد من هذه المفاضلة تسهيل أمر الدنيا، وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر عظيم مما في الدنيا جميعه، فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات.

وتعرضت الحلقة كذلك لبيان تميز خير الآخرة والجزاء فيها بالأفضلية، فثواب الزمن القليل في الجنة خير من الدنيا كلها، وكذا موضع السوط في الجنة، يشار به إلى ما صغر في الجنة من المواضع كلها، من بساتينها وأرضها، فأخبر أن قصير الزمان وصغير المكان في الآخرة خير من طويل الزمان وكبير المكان في الدنيا، تزهيداً بها، وتصغيراً لها، وترغيباً في الجهاد، إذ هذا القليل الذي يعطيه الله في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها، فكيف بمن أتعب فيه نفسه، وأنفق ماله؟! وقيل: إن معنى (خير من الدنيا) ثواب

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما.
2. المصدر السابق.

ذلك في الجنة خير من الدنيا، وقيل: خير من أن يتصدق بما في الدنيا إذا ملكها، وقيل: إذا ملك ما في الدنيا وأنفقه في وجوه البر والطاعة، غير الجهاد، وقال القرطبي: أي الثواب الحاصل على مشية واحدة في الجهاد، خير لصاحبه من الدنيا وما فيها لو جمعت له بحذافيرها، والله تعالى في قرآنه الكريم بين مراراً فضل نعيم الآخرة على متاع الدنيا وزينتها، فالحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس، وتكاثر في الأموال والأولاد، وهي تشبه غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما فيها:

لم يقتصر العمل الذي يفوق فضله بالنسبة إلى مجازاة صاحبه في الآخرة الدنيا وما فيها على الرباط في سبيل الله، والغدوة والروحة في سبيل الله، وموضع سوط المجاهد في سبيل الله، بل هناك من الأعمال يرتقي فاعلوها للفوز بمثل هذا الفضل العظيم، وهي غير عسيرة الحصول، وغير مكلفة الأداء، فركعتا الفجر ينال مؤديهما فضلاً في الآخرة يفوق في قدره ونوعه الدنيا وما فيها، كما هو مبين في حديث عائشة، رضي الله عنها، المثبت نصه في صدر هذه الحلقة، وفي حاشية السندي على سنن النسائي، أن المراد بركعتي الفجر هنا سنة الفجر، وهي المشهورة بهذا الاسم، ويحتمل الفرض، (خير من الدنيا) أي خير من أن يعطي تمام الدنيا في سبيل الله تعالى، أو هو على اعتقادهم أن في الدنيا خيراً، وإلا فذرة من الآخرة لا يساويها الدنيا وما فيها.[1]

ويبين صاحب فيض القدير أن المفاضلة هنا راجعة لذات النعيم، لا إلى ركعتي الفجر نفسهما. وقال الطيبي: إن حمل الدنيا على أعراضها وزهرتها، فالخير إما يجري على زعم من يرى فيها خيراً، أو يكون من باب {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا}[2]، وإن حمل على الإنفاق في سبيل الله فتكون هاتان الركعتان أكثر ثواباً منها.[3]

---

1. حاشية السندي على سنن النسائي: 3 /252.
2. مريم: 73.
3. فيض القدير: 4 /36.

مَنَادِيلُ سَعْدِ بن مُعَاذٍ في الْجَنَّةِ:

الزهد في الدنيا وزينتها يتحقق بالنظر لقدرهما الضحل بالنسبة إلى نعيم الآخرة، ومن الأحاديث التي تظهر هذا المعنى، ما رواه أَنَس، رضي الله عنه، قال: (أُهْدِيَ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، جُبَّةُ سُنْدُسٍ، وكان يَنْهَى عن الْحَرِيرِ، فَعَجِبَ الناس منها، فقال: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بن مُعَاذٍ في الْجَنَّةِ أَحْسَنُ من هذا).[1]

يبين الإمام العيني أن الثوب المذكور أهداه إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، صاحب دومة، ووجه تخصيص سعد بن معاذ بالذكر فلكونه سيد الأنصار، أو كان يحب ذلك الجنس من الثوب، وأما تخصيص المناديل بالذكر؛ فلكونها تمتهن، فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى.[2]

وفيه منقبة عظيمة لسعد، رضي الله تعالى عنه، وأن أدنى ثيابه في الجنة كذلك؛ لأن المنديل أدنى الثياب، فهو معد للوسخ والامتهان، والمناديل جمع منديل، وهو ما يمسح به ما يتعلق باليد من الطعام.[3]

فهذه وقفات تأملية عند بعض النصوص الشرعية التي بينت الفرق الشاسع بين نعيم الآخرة وبين متاع الدنيا، حتى وإن تحقق على أكمله بالنسبة إلى من يأتي بعض الأفعال المميزة في سبيل الله، مكتفين في هذه المرحلة بما تيسر بيانه والوقوف عنده سواء من ناحية النصوص أم المعاني، سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا للعمل بما يرضيه سبحانه، للفوز بالجنة ونعيمها، تحقيقاً لما وعدنا به الله ورسوله محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الهبة فضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين.
2. عمدة القاري: 22 /14.
3. عمدة القاري: 23/ 173.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم،
لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا
الحلقة الأولى

عن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ أخبر أَنَّ عَمْرَو بن عَوْفٍ -وهو حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بن لُؤَيٍّ، كان شَهِدَ بَدْرًا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم أخبره: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بن الجَرَّاحِ إلى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وكان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، هو صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عليهم الْعَلَاءَ بن الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أبو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ من الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فوافته صَلَاةَ الصُّبْحِ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فلما انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا له، فَتَبَسَّمَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حين رَآهُمْ، وقال: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أبي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جاء بِشَيْءٍ؟ قالوا: أَجَلْ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ ما الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ على من كان قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كما أَلْهَتْهُمْ)[1]

يتضمن هذا الخبر الصحيح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تعقيباً مهماً يتعلق بخطورة التعلق الزائد بالدنيا وزينتها، والمال من أبرز عناصر ذلك، مصداقاً لقوله عز وجل: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[2] ويحسن هنا الوقوف عند بعض المحاور المتضمن ذكرها في هذا الخبر، وذلك على النحو الآتي:

التطلع لكسب المال:

الخبر أعلاه يشير في بدايته إلى أن أبا عبيدة بن الجراح، قدم من البحرين بمال

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.
2. آل عمران: 14.

من جزيتها، فتلهف بعض الصحابة، والخبر يذكر أنهم من الأنصار، وتطلع هؤلاء لينالوا نصيباً من هذا المال، فانتبه النبي، صلى الله عليه وسلم، لذلك، (فسألهم: أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أبي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جاء بِشَيْءٍ؟ قالوا: أَجَلْ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ) قوله: (وأملوا) من الأمل، وهو الرجاء. [1]

وهذا الخبر يشير إلى تطلع الناس في العادة لكسب المال، والرسول، صلى الله عليه وسلم، أخبر عن الطبيعة البشرية هذه، فقال: (لو أَنَّ لابن آدَمَ وَادِيًا من ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ له وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله على من تَابَ) وعن أَنَسٍ عن أُبَيٍّ قال: (كنا نَرَى هذا من الْقُرْآنِ، حتى نَزَلَتْ {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}) [2]

ويجدر هنا التنبيه إلى أن الإسلام لا يحارب النوازع البشرية التي فطر الله الناس عليها، لكنه يعمل على تهذيبها، لتلافي شرها، فلم يمنع الإنسان من جمع المال والحرص عليه، لكنه ألزمه بالكسب المشروع، والإنفاق المباح أو الواجب.

المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ:

في مناسبة أخرى بيان واضح لنظرة الإسلام للمال، فعن حَكِيم بن حِزَامٍ، رضي الله عنه، قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يا حَكِيمُ، إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى. قال حَكِيمٌ: فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شيئاً حتى أُفَارِقَ الدُّنْيَا...) [3]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (خَضِرَةٌ) التأنيث إما باعتبار الأنواع، أو الصورة، أو تقديره كالفاكهة الخضرة الحلوة، شبه المال في الرغبة فيه بها، فإن الأخضر مرغوب فيه من حيث النظر، والحلو من حيث الذوق، فإذا اجتمعا زادا في الرغبة، حاصله أن التشبيه في الرغبة فيه، والميل إليه، وحرص النفوس عليه، بالفاكهة الخضراء المستلذة،

1. عمدة القاري: 23 /39.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.
3. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.

فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده، فاجتماعهما أشد.

وفيه أيضاً إشارة إلى عدم بقائه؛ لأن الخضراوات لا تبقى، ولا تراد للبقاء، وقوله: (فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ) أي بغير شره، ولا إلحاح، وفي رواية (بطيب نَفْسٍ) فإن قيل: السخاوة إنما هي في الإعطاء، لا في الأخذ، أجيب: السخاوة في الأصل السهولة والسعة، قال القاضي: فيه احتمالان، أظهرهما أنه عائد إلى الآخذ، أي من أخذه بغير حرص وطمع وإشراف عليه، والثاني إلى الدافع، أي من أخذه ممن يدفعه منشرحاً بدفعه طيب النفس له.

قوله: (بِإِشْرَافِ نَفْسٍ) الإشراف على الشيء الاطلاع عليه، والتعرض له، وقيل: معنى إشراف نفس، أن المسؤول يعطيه عن تكره، وقيل: يريد به شدة حرص السائل، وإشرافه على المسألة.

قوله: (لم يُبَارَكْ له فيه) الضمير في (لَه) يرجع إلى الآخذ، وفي (فيه) إلى المعطَى، بفتح الطاء، ومعناه إذا لم يمنع نفسه المسألة، ولم يصن ماء وجهه، لم يبارك له فيما أخذ وأنفق.

وقوله: (وكان كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ)؛ أي كمن به الجوع الكاذب، وقد يسمى بجوع الكلب، كلما ازداد أكلاً ازداد جوعاً، لأنه يأكل من سقم، كلما أكل ازداد سقماً، ولا يجد شبعاً.(*)

فهذه وقفة تمهيدية للتدبر في الخشية على المسلمين من أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا، تخللتها وقفة ذات صلة، مع حديث حَكِيم بن حِزَامٍ، الذي يرجى توفيق الله وتيسيره لمتابعة شرحه، وذكر ما يستفاد منه، في الحلقة القادمة، وصلى الله وسلم على الرسول، المصطفى، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 9/ 52 - 53.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم،

لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا

الحلقة الثانية

عن حَكِيم بن حزام، قال: (يا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شيئاً حتى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أبو بَكْرٍ، رضي الله عنه، يَدْعُو حَكِيمًا إلى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ منه، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ، رضي الله عنه، دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ منه شيئاً، فقال عُمَرُ: إني أُشْهِدُكُمْ يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ على حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عليه حَقَّهُ من هذا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فلم يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا من الناس بَعْدَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، حتى تُوُفِّيَ)[1]

وقفت الحلقة السابقة عند الخبر الصحيح الذي يبين في بدايته أن أبا عبيدة بن الجراح قدم من البحرين بمال من جزيتها، فتلهف صحابة من الأنصار، وتطلعوا لينالوا نصيباً من هذا المال، فانتبه النبي، صلى الله عليه وسلم، لذلك، وبَشَّرهم، وأشير في السياق إلى أن الإسلام لا يحارب النوازع البشرية التي فطر الله الناس عليها، لكنه يعمل على تهذيبها، لتلافي شرها، فلم يمنع الإنسان من جمع المال والحرص عليه، لكنه ألزمه بالكسب المشروع، والإنفاق المباح أو الواجب، مع بيان أن الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى، وقال حَكِيمٌ بن حزام لرَسُول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شيئاً حتى أُفَارِقَ الدُّنْيَا...)[2]

تعهد حكيم بن حزام بأن لا يرزأ أحداً:

قوله: (لَا أَرْزَأُ) بفتح الهمزة، وسكون الراء، وفتح الزاي وبالهمزة، معناه لا أنقص

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة.
2. المصدر السابق.

ماله بالطلب، وفي النهاية: (ما رزأته) أي ما نقصته. وقوله: (بَعْدَكَ) الخطاب للنبي، صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أن يكون المعنى غيرك، قال الكرماني: فإن قلت لِمَ امتنع من الأخذ مطلقاً، وهو مبارك إذا كان بسعة الصدر، مع عدم الإشراف، قلت: مبالغة في الاحتراز؛ إذ مقتضى الجبلة الإشراف والحرص، والنفس سراقة، والعرق دساس، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقوله: (فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ منه)؛ أي فامتنع حكيم أن يقبل عطاءً من أبي بكر في الأول، ومن عمر في الثاني، ووجه امتناعه من أخذ العطاء مع أنه حقه؛ لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئاً فيعتاد الأخذ، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، ولأنه خاف أن يفعل خلاف ما قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنه قال: (لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ) وقول عمر، رضي الله تعالى عنه: (إني أُشْهِدُكُمْ يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ على حَكِيمٍ) لأنه خشي سوء التأويل، فأراد تبرئة ساحته بالإشهاد عليه. (*)

ما يستفاد من حديث حكيم بن حزام:

مما يستفاد من حديث حكيم بن حزام آنف الذكر، ما قاله المهلب: إن سؤال السلطان الأكبر ليس بعار، وفيه أن السائل إذا ألحف لا بأس برده وموعظته، وأمره بالتعفف، وترك الحرص، وفيه أن الإنسان لا يسأل إلا عند الحاجة والضرورة؛ لأنه إذا كانت يده السفلى مع إباحة المسألة، فهو أحرى أن يمتنع من ذلك عند غير الحاجة.

وفيه أن من كان له حق عند أحد فإنه يجب عليه أخذه إذا أتى، فإن كان مما لا يستحقه إلاَّ ببسط اليد، فلا يجبر على أخذه. وفيه ما قال ابن أبي جمرة: قد يقع الزهد مع الأخذ، فإن سخاوة النفس هو زهدها، تقول: سخت بكذا، أي جادت، وسخت عن كذا، أي لم تلتفت إليه، وفيه أن الأخذ مع سخاوة النفس يحصل أجر الزهد والبركة في الرزق، فظهر أن الزهد يحصل خيري الدنيا والآخرة.

* عمدة القاري: 9/ 52 - 53، بتصرف .

وفيه ضرب المثل بما لا يعقله السامع من الأمثلة؛ لأن الغالب من الناس لا يعرف البركة إلا في الشيء الكثير، فبين بالمثال المذكور أن البركة هي خلق من خلق الله تعالى، وضرب لهم المثل بما يعهدون بالأكل، إنما يؤكل ليشبع، فإذا أكل ولم يشبع كان عناء في حقه بغير فائدة، وكذلك المال ليست الفائدة في عينه، وإنما هي لما يتحصل به من المنافع، فإذا كثر المال عند المرء بغير تحصيل منفعة، كان وجوده كالعدم.

وفيه أنه ينبغي للإمام أن لا يبين للطالب ما في مسألته من المفسدة إلاَّ بعد قضاء حاجته؛ لتقع موعظته له الموقع؛ لئلا يتخيل أن ذلك سبب لمنعه حاجته.

وفيه جواز تكرار السؤال ثلاثاً، وجواز المنع في الرابعة. وفيه أن رد السائل بعد ثلاث ليس بمكروه، وأن الإجمال في الطلب مقرون بالبركة.(*)

فهذه وقفة أخرى للتدبر في الخشية على المسلمين من أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا، تخللتها وقفة ذات صلة، مع حديث حَكِيمَ بن حِزَامٍ، الذي تم شرحه وذكر ما يستفاد منه، راجين توفيق الله وتيسيره لمتابعة الحديث في الحلقة القادمة عن الخشية على المسلمين من أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا، كما ذكر، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 9/ 53 بتصرف.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم،

لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا

الحلقة الثالثة والأخيرة

قال صلى الله عليه وسلم: (فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ)(*)

وقفت الحلقة السابقة عند تعهد حكيم بن حزام للنبي، صلى الله عليه وسلم، بأن لا يرزأ أحداً، ومعناه أن لا ينقص مال أحد بالطلب، وبين الكرماني أن حكيم امتنع من الأخذ مبالغة في الاحتراز؛ وقد امتنع حكيم أن يقبل عطاءً من أبي بكر في الأول، ومن عمر في الثاني، ووجه امتناعه من أخذ العطاء مع أنه حقه؛ لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئاً فيعتاد الأخذ، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، ولأنه خاف أن يفعل خلاف ما قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وذكر في الحلقة كذلك بعض ما يستفاد من حديث حكيم بن حزام المشار إليه.

فَوَ اللهِ ما الْفَقْرَ أَخْشَى عليكم:

بالنسبة إلى لفظ الفقر في قوله، صلى الله عليه وسلم: (فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عليكم) فإنه بالنصب يعني: ما أخشى عليكم الفقر، ويجوز الرفع بتقدير ضمير؛ أي ما الفقر أخشاه عليكم، ويرجح ابن حجر العسقلاني الأول، وهو النصب، وهذه الخشية يحتمل أن يكون سببها علمه أن الدنيا ستفتح عليهم، ويحصل لهم الغنى بالمال، وقد ذكر ذلك في أعلام النبوة مما أخبر صلى الله عليه وسلم بوقوعه قبل أن يقع فوقع.

وقال الطيبي: فائدة تقديم المفعول به هنا الاهتمام بشأن الفقر، فإن الوالد المشفق إذا حضره الموت كان اهتمامه بحال ولده في المال، فأعلم صلى الله عليه

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

وسلم، أصحابه أنه - وإن كان لهم في الشفقة عليهم كالأب - لكن حاله في أمر المال يخالف حال الوالد، وأنه لا يخشى عليهم الفقر كما يخشاه الوالد، ولكن يخشى عليهم من الغنى، الذي هو مطلوب الوالد لولده، والمراد بالفقر العهدي، وهو ما كان عليه الصحابة من قلة الشيء، ويحتمل الجنس، والأول أولى، ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى أن مضرة الفقر دون مضرة الغنى؛ لأن مضرة الفقر دنيوية غالباً، ومضرة الغنى دينية غالباً.[1]

وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا:

جاء في مرقاة المفاتيح، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يخش عليهم الفقر؛ لأن الغالب عليه السلامة، وأنه أنفع لكم، ولذا قيل: إن من العصمة أن لا تقدر، وإن كاد الفقر أن يكون كفراً (وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ) أي توسع (عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا)؛ أي فتعملوا معاملة الأغنياء الأغبياء، فتهلكوا بأنواع البلاء، كما بسطت على من كان قبلكم، أي فهلكوا بسبب عدم ترحمهم على الفقراء، لأجل كمال الميل إلى المال.

(فَتَنَافَسُوهَا) بحذف إحدى التاءين، عطف على تبسط، من نافست في الشيء أي رغبت فيه، وبحقيقة أن المنافسة والتنافس ميل النفس إلى الشيء النفيس، ولذا قال تعالى: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}[2]، والمعنى فتختاروها أنتم، وترغبوا فيها غاية الرغبة (كَمَا تَنَافَسُوهَا) بصيغة الماضي، أي كما رغب فيها من قبلكم (وتهلككم) أي الدنيا (كما أهلكتهم).[3]

ووجه الهلاك من التنافس على الدنيا، أن المال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه، فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك، قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها، وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها، ولا ينافس غيره فيها.[4]

1. فتح الباري: 11/ 245.
2. المطففين: 26.
3. مرقاة المفاتيح: 9/ 361.
4. فتح الباري: 11/ 245.

ومن الشواهد التاريخية المعبرة التي ذكر القرآن الكريم بعضاً من جوانبها للاتعاظ والاعتبار، قصة قارون الذي بغى بعد أن آتاه الله مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ، فقال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ* قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ* فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[1]

وفي موضع قرآني آخر ذكر الله استكبار قارون وفرعون وهامان ضد الحق والبينات التي آتاهم بها نبي الله موسى، عليه السلام، فقال عز وجل:{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}[2]

فالانشغال بالدنيا آفة، والتنافس عليها مهلك، أعاذنا الله من شر هاتين الآفتين، حتى ننجو من مصير المنشغلين بالدنيا وزينتها.

وبهذه الوقفة نختم الحديث عن الخشية على المسلمين من أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا، كما ذكر صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. القصص: 76 - 83.
2. العنكبوت: 39.

الفصل الخامس

مناهج وقيم

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الأولى	144
.2	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الثانية	147
.3	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الثالثة	150
.4	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الرابعة	154
.5	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الخامسة	158
.6	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة السادسة والأخيرة	161
.7	يحذر من تحريش الشيطان	165

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات
الحلقة الأولى

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: وَاثْنَانِ»(*)

النساء شقائق الرجال، فالله خلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وللنساء في الأوضاع السوية حقوق عادلة في مجتمعاتهن، وعليهن واجبات منصفة، ومن هذا المنطلق، فقهت المرأة المسلمة دورها في الحياة، وعرفت ما لها وما عليها، دون تفريط ولا إفراط، وحديث أبي سعيد أعلاه يدل بجلاء على جرأة المرأة المسلمة في إبداء الرأي، والمطالبة بالحقوق بصوت مرتفع، حتى وهي تخاطب من يتولى زمام الأمور، فلم تمنع تلك المرأة أي حواجز أو معوقات عن مطالبة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بحق النساء في التعلم منه، ولقائه لمناقشته في قضايا الدين والدنيا، والرسول، صلى الله عليه وسلم، بصفته يبلغ عن الله الدين القويم، ويتحمل المسؤولية عما استرعاه ربه من الخلق، استجاب لطلب تلك المرأة، وخصص للنساء يوماً لقيهن فيه، فأرشدهن للاستقامة على الدين، ووجههن كما كان يوجه الرجال لسلوك طريق الهداية، وتجنب دروب الضلال، للفوز في المحصلة بالجنة، والنجاة من النار.

وقفة مع معاني هذا الحديث الشريف وما يستنبط منه:

جاء في عمدة القاري، أن قولها: (غلبنا عليك الرجال) معناه أن الرجال يلازمونك الأيام كلها، ويسمعون العلم وأمور الدين، ونحن نساء ضعفة، لا نقدر على مزاحمتهم، فاجعل لنا يوماً من الأيام، نسمع العلم، ونتعلم أمور الدين. وقوله: (ثلاثة) أي ثلاثة أولاد، فإن قيل الثلاثة مذكر، فهل يشترط أن يكون الولد الميت ذكراً، حتى يحصل لها الحجاب؟

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب....

وأجيب عن ذلك بأن تذكيره بالنظر إلى لفظ الولد، والولد يقع على الذكر والأنثى، وقوله: (فقالت امرأة) هي أم سليم، وقيل غيرها، والله أعلم.

وقوله: (فقال: واثنين) دليل على أن حكم الاثنين حكم الثلاثة، لاحتمال أنه أوحي إليه في الحين بأن يجيب عليه الصلاة والسلام، بذلك، ولا يمتنع أن ينزل الوحي عليه، صلى الله عليه وسلم، بذلك حين السؤال، وقال النووي: ويجوز أن يكون أوحي إليه قبله، فإن قيل: هل للرجل مثل ما للمرأة إذا قدم الولد؟ وأجيب عن ذلك بالإيجاب، لأن حكم المكلفين على السواء، إلاَّ إذا دل دليل على التخصيص.[1]

أربعة من الأحكام والأمور استنبطها الإمام العيني من هذا الحديث، وهي:

الأول: سؤال النساء عن أمر دينهن، وجواز كلامهن مع الرجال في ذلك، وفيما لهن الحاجة إليه.

الثاني: جواز الوعد.

الثالث: جواز الأجر للثكلى.

الرابع: دليل على أن أولاد المسلمين في الجنة؛ لأن الله سبحانه إذا أدخل الآباء الجنة بفضل رحمته للأبناء، فالأبناء أولى بالرحمة.[2]

حملته كرهاً ووهناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً:

وعد النساء في الحديث أعلاه بجعل صبرهن على فقدان الأبناء، حجاباً لهن من النار، يرمز لأبعاد عديدة، منها: لزوم تقدير دور المرأة في الحياة، فلولاها لما تواصل التناسل، ولما استمرت الحياة البشرية، بل لما وجدت أصلاً، والمرأة خلال أدائها هذا الدور الحيوي، تواجه مصاعب جمة ومخاطر جسيمة، ومما يلفت الانتباه ويشد العيون المتدبرة في الآيات القرآنية الكريمة، تذكير الله الأبناء عند توصيتهم بوالديهم، بما تعانيه أمهاتهم من مشاق الحمل بهم، فقال عز وجل: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ

1. عمدة القاري: 2 /134، بتصرف.
2. عمدة القاري: 2 /134 - 135.

أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[1]

يقول صاحب أضواء البيان: ومعنى {حملته كُرْهاً}، أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة، ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل من المشقة والضعف، إذا أثقلت وكبر الجنين في بطنها، ومعنى {وضعته كُرهاً} أنها في حالة وضع الولد تلاقي من ألم الطلق وكربه مشقة شديدة، كما هو معلوم، وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد، ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، ويتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيها الحامل، دل عليه قوله تعالى في لقمان: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ}[2][3]

ومعنى قوله: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ}؛ أي ضعفاً على ضعف؛ لأن الحمل كلما عظم ازدادت الحامل به ضعفاً، {وَفِصَالُهُ} أي فطامه، وأشار بذلك إلى غاية مدة الرضاع، {أَنِ اشْكُرْ} تفسير للوصية، واعترض بينها وبين تفسيرها، بقوله: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} ليبين ما تكابده الأم بالولد، مما يوجب عظيم حقها، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب.[4]

وبهذا التمهيد بما تم التطرق إليه، والوقوف عنده آنفاً، عن الوصية بالوالدين، ومكابدة الأم في الحمل والوضع، يرجى التوفيق في متابعته بمزيد من الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في أحاديث الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأحقاف: 15.
2. لقمان: 14.
3. أضواء البيان: 7/ 222 - 223.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 126 - 127.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات
الحلقة الثانية

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (أَتَت امْرَأَةٌ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِصَبِيٍّ لها، فقالت: يا نَبِيَّ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ له، فَلَقَدْ دَفَنْتُ ثَلَاثَةً، قال: دَفَنْتِ ثَلَاثَةً؟! قالت: نعم، قال: لقد احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ من النَّارِ)[1]

افتتحت الحلقة السابقة بالتنويه إلى مكانة المرأة في الإسلام، فالنساء شقائق الرجال، ولولاهن ما تواصل الوجود البشري، وللمرأة حقوق، وعليها واجبات، مثل الرجل، ومن حقوقها التعلم، وقد طالبت إحدى النساء نيابة عنهن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بهذا الحق، قائلة: (فَاجْعَلْ لنا من نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فيه) أي من أوقات نفسك.[2]، واستجاب صلى الله عليه وسلم لطلبها، فالتقى النساء، وعلمهن ووعظهن، وناقشهن بما فيه خيرهن، وأثنى على رباطة جأش الصابرات المحتسبات منهن، ممن فقدن فلذات الأكباد، فشكل صبرهن في هذا المضمار حجاباً لهن من النار، والمرأة الصابرة المحتسبة تعاني في الحمل والوضع ما تعانيه سائر النساء، فيحملن كرها ووهنا عَلَى وَهْنٍ، ويضعن أولادهن كُرْهاً، وعلى الرغم من أن إحداهن تفدي ابنها بكنوز الدنيا، إلا أن المؤمنة الثكلى وعدت بأن يكون ضناها الذي فقدته ستراً لها من النار.

احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ من النَّارِ:

حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، المثبت نصه أعلاه، يتماشى تماماً مع مضامين الأحاديث النبوية الذاكرة لوعد الأمهات الصابرات المحتسبات على فقد فلذات أكبادهن، بأن يحجبوا عنهن نار جهنم، فإحدى الأمهات أخبرت النبي، صلى الله عليه وسلم، بموت ثلاثة من أبنائها، فسألها عن حقيقة حدوث ذلك، فلما أكدت، بشرها عليه الصلاة والسلام، بِحِظَارٍ شَدِيدٍ من النَّارِ، فالضحايا من الأبناء يحجبون من النار، والاحتظار فعل

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.
2. عمدة القاري: 25/ 48.

الحظار، أي قد احتميت بحمى عظيم من النار، يقيك حرها.[1]

والاحتظار الامتناع، والحظار ما منع من وصول مكروه إلى من فيه، وأصله الحظيرة التي يحظر بها على الغنم.[2]

ويبين النووي أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (لقد احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ من النَّار) أي امتنعت بمانع وثيق، وأصل الحظر المنع، وأصل الحظار بكسر الحاء وفتحها، ما يجعل حول البستان وغيره من قضبان وغيرها، كالحائط.[3]

وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ:

في اللقاء الذي ترأسه النبي، صلى الله عليه وسلم، مع مجموعة النساء اللواتي اجتمعن به بناء على طلبهن، تطرق عليه الصلاة والسلام، لتضحيات النساء وبذلهن وصبرهن، فوعد التي تقدم ثلاثة من ولدها بحجاب من النار، وفي رواية أخرى، عن أبي سعيد، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أجاب عن سؤال المرأة عن الاثنين بعد ذكر الثلاثة، وتكرارها ذكر هذا اللفظ مرتين، فكرر عليه الصلاة والسلام، لفظ الاثنين ثلاث مرات:(... فقالت امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أو اثْنَيْنِ؟ قال: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قال: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ)[4]

وتكرار المرأة للفظ (واثنين) في قولها: (يا رسول الله، أو اثنين) عطف تلقيني، وإعادتها -أي المرأة- هذه الكلمة مرتين، أو قالت: يا رسول الله، قل: أو اثنين، أو قل: واثنين، ثم قال: أي النبي، صلى الله عليه وسلم: (واثنين واثنين واثنين) ثلاث مرات للتوكيد، والواو بمعنى أو.[5]

نموذج أم ناصر أبو حميد:

أم ناصر أبو حميد تلك القلعة الصامدة والشامخة، يعتز بعنفوانها كل فلسطيني وحر من الناس، إلا الذين تلطخت أيديهم بإيذائها وبنيها وبيتها، هذه العجوز في

1. حاشية السندي على سنن النسائي: 4/ 26.
2. كشف المشكل: 3/ 344.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 16/ 183.
4. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي، صلى الله عليه وسلم، أمته...
5. مرقاة المفاتيح: 4 /209.

عمرها الزماني، والباسلة المناضلة في رباطة جأشها وعزيمتها وصبرها الذي لا يلين، تعد أنموذجاً لطالبي الحرية بالتضحية، لا بالتمني فحسب، فقد فارقها ابن شهيد مرتقياً للعلا، ويكابد أبناء لها من فلذات كبدها وراء قضبان المحتلين لأرضها، ومدنسي مقدساتها، وسافكي دماء أحرار من شعبها، وهادمي منازل العائلات الآمنة البريئة، ومنها بيتها، فشردوا الأطفال والنساء والشيوخ، ويلاحقون الفتيان والفتيات بالتضييق والتكبيل والقتل، غير آبهين بشرائع السماء، ولا قوانين الأرض، سوى العهد بشريعة الغاب، واتباع منهج الطغيان، وعلى الرغم من ظلامية العدوان وقسوته وبجاحته، فإن أم ناصر أبو حميد تشربت في قلبها وعروقها حب العزة، وطلب الكرامة، واليقين بالله ناصر أصحاب الحق على من يعاديهم، ولو بعد حين من الابتلاء، فهي توقن بمغزى قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: (مَن عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ).[1] إلى جانب يقينها بجزاء الأمهات الصابرات المحتسبات، ومنهن التي تقدم بنيها في سبيل الله، ليكونوا لها حجاباً من النار، تحْتَظَر بهم منها بِحِظَارٍ شَدِيدٍ، فتحيات الإكبار والفخر والاعتزاز يجب أن تزجى ليل نهار لهذه الأم الشامخة، المنتظرة، ولم تبدل تبديلاً، وهي تتنقل من قلعة صمود إلى أخرى، مثل أبطالها الذين يتنقلون من سجن إلى آخر، وعلى رأسهم الصابر المحتسب ناصر، الذي يكابد السجن، ويعاني من الأسر معاناة ممزوجة بتداعيات المرض الصعب[2]، وأمه الصابرة المحتسبة تتابع أخباره أولاً بأول، دون نحيب ولا جزع، سائلين الله العلي القدير أن يجعلها وبنيها الأبطال مع الذين قال فيهم جل شأنه: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}[3]

ونرجوه سبحانه أن ييسر متابعة الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في آيات التنزيل الكريم، وأحاديث خاتم النبيين محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. وقد ارتقى ناصر أبو حميد شهيداً في سجنه بتاريخ 20 /12 /2022م.
3. الزمر: 10.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات

الحلقة الثالثة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال لِنِسْـوَةٍ مـن الْأَنْصَـارِ: (لَا يمُـوتُ لِإِحْدَاكُـنَّ ثَلَاثَـةٌ مـن الْوَلَـدِ، فَتَحْتَسِـبَهُ، إلا دَخَلَـت الْجَنَّـةَ، فقالـت امْـرَأَةٌ مِنْهُـنَّ: أو اثْنَـيْنِ يـا رَسُـولَ اللَّـهِ؟ قـال: أو اثْنَـيْنِ)(*)

وقفـت الحلقـة السـابقة عنـد مزيـد مـن الوعـود المتضمنـة في الأحاديـث النبويـة الصحيحـة للأمهـات الصابـرات المحتسـبات، ومـن ذلـك قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، للمـرأة، التـي أخبرتـه عـن دفنهـا ثلاثـة مـن أبنائهـا: (لقـد احْتَظَـرْتِ بِحِظَـارٍ شَـدِيدٍ مـن النَّـار) أي امتنعـت بمانـع وثيـق مـن نـار جهنـم.

ووقفـت الحلقـة كذلـك عنـد سـؤال إحـدى النسـاء عـن جـزاء التـي تقـدم اثنـين مـن أبنائهـا، هـل يكونـا حجابـاً لهـا مـن النـار، كالتـي قدمـت ثلاثـة؟ فـكان الجـواب بالإيجـاب معـززاً بتأكيـد تكـرار ذكـر لفـظ الاثنـين في السـؤال والجـواب، وتمـت الإشـادة في هـذا السـياق بصـبر الحاجـة أم نـاصر أبـو حميـد، ورباطـة جأشـها، فهـي مثـال يحتـذى في الصمـود والاحتسـاب واليقـين بنـصر اللـه الموعـود، وجزائـه العـادل، فـلا تشـاهد إلا شـامخة في العزيمـة، والأمـل بتحقـق النـصر والفـرج، عـلى الرغـم مـما بهـا مـن جـراح، ومـا يحيـط بهـا مـن ابتـلاء صعـب في الأبنـاء المختطفـين مـن حولهـا، والبيـت المدمـر مـن الظالمـين مـرات ومـرات.

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

الأم المحْتَسِبَة وجزاؤها:

معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (فتحتسبه) أي يكون هذا في حسابها الذي ترجوه في ثوابها، وهذا لا يكون إلا من مؤمن بالجزاء[1]، ومن تعليل تقييد الجزاء بشرط الاحتساب في قوله: (فتحتسبه) فلعله إنما ذكر ذلك للنساء لقلة الصبر عندهن، وكثرة الجزع فيهن، مع إظهار التفجع بفعل ما لا يجوز من كثير منهن، فردعهن عن ذلك بهذا الكلام، ليحصل انكفافهن عما يتعاطينه من الأمور المحرمة، فكانت فائدة هذا التقييد ارتداعهن عن ذلك، لا تخصيص الحكم به، وقد عرف في الأصول أن شرط العمل بالمفهوم أن لا تظهر له فائدة سوى تخصيص الحكم به.[2]

ولقد فقه الصحابة، رضي الله عنهم، معنى الاحتساب، فكانوا يراعونه في شؤونهم كلها، فعن معاذ بن جبل، رضي الله عنه، أنه سأل أبا مُوسَى الأشعري: (كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَعَلَى رَاحِلَتِي، وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا. قال: أَمَّا أنا فَأَنَامُ وَأَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي).[3]

استرجاع المبتلى بفقد عزيز:

من لوازم الاحتساب والصبر الاسترجاع، أي رد الأمر لله بقبول ورضا، وقد أثنى سبحانه على الصابرين المحتسبين المسترجعين، فقال عز وجل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوف وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[4]

جاء في تفسير السمرقندي، أن قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} يعني المؤمنين، {بِشَيْءٍ مِّنَ

1. كشف المشكل: 3/ 343 - 344.
2. طرح التثريب في شرح التقريب: 3/ 227.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع.
4. البقرة: 155 - 157.

الْخَـوف} أي لنختبركـم بخـوف العـدو، كالخـوف الـذي أصابهـم يـوم الخنـدق، حتـى بلغـت القلـوب الحناجـر، {الْجُـوعِ} وهـو القحـط الـذي أصابهـم، فـكان يمـضي عـلى أحدهـم أيـام لا يجـد طعامـاً، {وَنَقْـصٍ مِّـنَ الأَمَـوَالِ} يعنـي ذهـاب أموالهـم، ويقـال: مـوت الماشـية، {وَالأنفُسِ} يعنـي المـوت والقتـل والأمـراض، {وَالثَّمَـرَاتِ} أي نقـص الثـمار، فـلا تخـرج الثمـرة كـما كانـت تخـرج، أو تصيبهـا الآفـة، ويقـال: الثمـرات هـي مـوت الولـد، وهـو ثمـرة القلـب.

ثـم قـال تعـالى: {وَبَـشِّرِ الصَّابِرِيـنَ} يعنـي الذيـن يصـبرون عـلى هـذه المصائـب والشـدائد، التـي ذكـرت في هـذه الآيـة.

ثـم وصفهـم فقـال عـز وجـل: {الَّذِيـنَ إِذَا أَصَابَتْهُـم مُّصِيبَـةٌ} صـبروا ولم يجزعـوا، و{قَالُـوا إِنَّـا لِلّـهِ وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعـونَ} يعنـي يقولـون: نحـن عبيـد اللـه، وفي ملكـه، إن عشـنا فعليـه أرزاقنـا، وإن متنـا فإليـه مردنـا، وإليـه راجعـون بعـد المـوت، ونحـن راضـون بحكمـه.

وقولـه تعـالى: {أُولَـئِكَ} يعنـي أهـل هـذه الصفـة، {عَلَيْهِـمْ صَلَـوَاتٌ مِّـن رَّبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ} والصـلاة مـن اللـه تعـالى عـلى ثلاثـة أشـياء؛ توفيـق الطاعـة، والعصمـة عـن المعصيـة، ومغفرة الذنـوب، فبالصـلاة الواحـدة يكـون لهـم هـذه الأشـياء الثلاثـة، فقـد وعـد لهـم الصلـوات الكثـيرة، ومقـدار ذلـك لا يعلمـه إلا اللـه تبـارك وتعـالى، ثـم قـال سـبحانه: {وَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُهْتَـدُونَ} أي الموفقـون للاسـترجاع.(*)

فالابتـلاء قـرره اللـه تعـالى ويجريـه سـبحانه، ومـن ذلـك النقـص مـن الأنفـس، بـأي صـورة وحـال تـم هـذا النقـص، ومـن ذلـك مـوت الولـد، والمعـاني المذكـورة في التفاسـير لألفـاظ الخـوف والجـوع ونقـص الأنفـس والثمـرات، ليسـت حصريـة، إذ الألفـاظ المذكـورة عامـة تشـملها وغيرهـا مـما يمكـن أن ينـدرج ضمـن معانيهـا، ويكـون الصـبر عليـه مطلـوب، والجـزاء عـلى الصـبر عظيـم، والصابـرون يقسـمهم بعـض العلـماء إلى أربعـة أوجـه:

* تفسير السمرقندي: 1/ 131 - 132.

- صابرون على البلاء، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع.

- وصابرون على النعم، وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها.

- وصابرون على الطاعة، بالمحافظة والدوام عليها.

- وصابرون عن المعاصي، بكف النفس عنها.

وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهراً، وترك الكراهة باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.(*)

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لنا سبل الصبر والاحتساب، وأن يجزي الصابرين والصابرات منا خير الجزاء، ونرجوه سبحانه أن ييسر متابعة الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في آيات التنزيل الكريم، وأحاديث الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 65.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات
الحلقة الرابعة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ من الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ من الْوَلَدِ، تَمَسُّهُ النَّارُ إلا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ)[1]

تعرضت الحلقة السابقة لمعنى الاحتساب الوارد في شرط جزاء التي تفقد ثلاثة من ولدها أو اثنين بحجبها عن النار بهم، فقصد بـ (فتحتسبه) أي يكون هذا في حسابها الذي ترجوه في ثوابها، وهذا لا يكون إلا من مؤمن بالجزاء، ومن تعليل تقييد الجزاء بهذا الشرط أنه ذكر النساء لقلة الصبر عندهن، وكثرة الجزع فيهن، مع إظهار التفجع بفعل ما لا يجوز من كثير منهن، فردعهن عن ذلك بهذا الكلام، ليحصل انكفافهن عما يتعاطينه من الأمور المحرمة، فكانت فائدة هذا التقييد ارتداعهن عن ذلك، والاحتساب مشروط لقبول الأعمال والمثوبة عليها، ومن ذلك احتساب القراءة والنومة والقومة، كما جاء في حديث معاذ بن جبل، رضي الله عنه[2].

ومن لوازم الاحتساب والصبر عند الابتلاء، الاسترجاع عند فقد عزيز، ومن ذلك موت الأبناء، أي رد الأمر لله بقبول ورضا، وقد أثنى سبحانه على الصابرين المحتسبين المسترجعين، ووعدهم بصلواته ورحمته، والصلاة من الله تعالى على ثلاثة أشياء؛ توفيق الطاعة، والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب، وبالصلاة الواحدة يكون لهم هذه الأشياء الثلاثة، فكيف بالصلوات الكثيرة؟!!

1. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم}(الأنعام: 109).
2. صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم.

تحلة القسم:

حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أعلاه، تضمن التأكيد على أن الصبر على فقد الولد يحجب من النار، جاء في مرقاة المفاتيح، أن تطلب إحداكن بموته ثواباً عند الله، بالصبر عليه، وتعتده فيما يدخر لها في الآخرة، قال الطيبي: أي فتصير راجية لرحمة الله وغفرانه، والفاء هنا للتسبب بالموت، وحرف النفي منصب على السبب والمسبب معاً (إلا دخلت الجنة) أي دخولاً أوّلياً، وهو لا ينافي في الولوج تحلة القسم، والاستثناء من أعم الأحوال.[1]

والمقصود بالقسم هنا الوارد في قوله عز وجل: {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً}.[2]

جاء في أضواء البيان، أن ورودهم النار المذكور كان أمراً واجباً مفعولاً لا محالة، والحتم الواجب الذي لا محيد عنه، وذكر جماعة من أهل العلم من أن المراد بقوله: {حتماً مقضياً} قسماً واجباً.[3]

واستدل من قال إن في الآية قسماً بحديث أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ من الوَلَدِ، فَيَلِجَ النَّارَ إلا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، قال أبو عَبْد اللَّهِ: {وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وَارِدُهَا}).[4]

يقول ابن حجر العسقلاني: (قوله: إلا تحلة القسم) أي ما ينحل به القسم، وهو اليمين، وهو مصدر حلل اليمين، أي كفرها، يقال: حلل تحليلاً، وتحلة وتحلاً بغير هاء.[5]

وقال الخطابي: معناه لا يدخل النار ليعاقب بها، ولكنه يدخلها مجتازاً، ولا يكون ذلك الجواز إلا قدر ما تنحل به اليمين، وهو الجواز على الصراط.[6]

---

1. مرقاة المفاتيح: 4 /187.
2. مريم: 71.
3. أضواء البيان: 3/ 481.
4. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب..
5. فتح الباري: 3/ 123.
6. تنوير الحوالك: 1/ 183.

أجر الآباء والأمهات الصابرين والمحتسبين:

معظم الروايات بشرت الأمهات اللواتي يفقدن الأبناء، فيصبرن، ويحتسبن، بجعلهم حجاباً لهن من النار، والرواية أعلاه يتعدى فيها نص البُشرى ليشمل الآباء، فقال عليه الصلاة والسلام، فيها: (لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِن الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِن الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ) فقد وردت البشرى في هذا المجال للمسلم دون تحديد جنسه في عدد من الروايات الصحيحة كذلك، منها حديث أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (ما من الناس من مُسْلِمٍ يُتَوَفَّى له ثَلَاثٌ لم يَبْلُغُوا الْحِنْثَ، إلا أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ، بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ).[1] فقوله: (لِأَحَدٍ من الْمُسْلِمِينَ) يشمل الذكر والأنثى[2]، أي يشمل الآباء والأمهات.

فالآباء والأمهات الذين يبتليهم الله بفقد الولد فيصبرون ويحتسبون، يجزيهم الله بالوقاية بمن فقدوا من النار، وفقد الولد يشمل الذكور والإناث، فلفظ الولد عام، إذا أطلق فإنه يشمل الجنسين، ولا يصرف عن ذلك إلا بدليل أو قرينة معتبرة، فالولد يطلق على الذكر والأنثى، وعلى المفرد والجمع[3].

وبالنسبة إلى (يعتد) في قوله: (لم يبلغوا الحنث)، فسيتم إن شاء الله مناقشته في حلقة قادمة.

قوله: (ثلاثة) أي ثلاثة أولاد، ويروى (ثلاث) لا يقال الولد مذكر، فلا بد من علامة التأنيث فيه؛ لأننا نقول إذا كان المميز محذوفاً جاز في لفظ العدد التذكير والتأنيث.[4]

فجزاء الآباء والأمهات على احتسابهم وصبرهم على ما يجدون من ألم وحزن على فقد أولادهم، يندرج كذلك ضمن المثوبة الموعودة للصابرين على المصائب التي تنتابهم، كما في حديث عَائِشَةَ، رضي الله عنها، زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (ما من مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ، إلا كَفَّرَ الله بها عنه، حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا).[5]

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب...
2. شرح الزرقاني: 2/ 103.
3. طرح التثريب في شرح التقريب: 3/ 221.
4. عمدة القاري: 8/ 29.
5. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض.

ومما يستفاد من هذا الحديث الشريف وأمثاله ما بينه ابن عبد البر، من أن المسلم تكفر خطاياه، وتغفر له ذنوبه، بالصبر على مصيبته، ولذلك زحزح عن النار، فلم تمسه، لأن من لم تغفر له ذنوبه لم يزحزح عن النار، والله أعلم.(*)

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لنا سبل الصبر والاحتساب، وأن يجزي الصابرين والصابرات منا خير الجزاء، ونرجوه سبحانه أن ييسر متابعة الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في آيات التنزيل الكريم، وأحاديث الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التمهيد لابن عبد البر: 6/ 346.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات
الحلقة الخامسة

عـن أَنَـسِ بـن مَالِـكٍ، رضي اللـه عنـه، قـال: (مَـرَّ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بِامْـرَأَةٍ تَبْـكِي عِنْـدَ قَـبْرٍ، فقـال: اتَّقِـي اللَّـهَ وَاصْـبرِي)، قالـت: إِلَيْـكَ عَنِّـي، فَإِنَّـكَ لم تُصَـبْ بمُصِيبَتِـي - ولم تَعْرِفْـهُ- فَقِيـلَ لهـا: إنـه النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فَأَتَـتْ بَـابَ النبـي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فلـم تَجِـدْ عِنْـدَهُ بَوَّابِـينَ، فقالـت: لم أَعْرِفْـكَ، فقـال: (إنمـا الصَّـبْرُ عِنْـدَ الصَّدْمَـةِ الْأُولَـى).[1]

بينـت الحلقـة السـابقة أن الصـبر عـلى فقـد الولـد يحجـب مـن النـار، ولا ينـافي الولـوج فيهـا تحلـة القسـم الـوارد في قولـه عـز وجـل: {وَإِن منكُـمْ إِلَّا وَارِدُهَـا كَانَ عَـلَى رَبِّـكَ حَتْـماً مقْضِيّـاً}[2]، ومعنـى تحلـة القسـم؛ أي مـا ينحـل بـه القسـم، وهـو اليمـين، ومعنـى قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (لَا يمُـوتُ لِمُسْـلِمٍ ثَلَاثَـةٌ مـن الْوَلَـدِ فَيَلِـجَ النَّـارَ إلا تَحِلَّـةَ الْقَسَـمِ)، أي لا يدخـل النـار ليعاقـب بهـا، ولكنـه يدخلهـا مجتـازاً، ولا يكـون ذلـك الجـواز إلا قـدر مـا تنحـل بـه اليمـين، وهـو الجـواز عـلى الـصراط. ومعظـم الروايـات بـشرت الأمهـات اللـواتي يفقـدن الأبنـاء، فيصـبرن، ويحتسـبن، بجعلهـم حجابـاً لهـن مـن النـار، ووردت البـشرى في هـذا المجـال للمسـلم دون تحديـد جنسـه، وذلـك يشـمل الذكـر والأنثـى، فالآبـاء والأمهـات الذيـن يبتليهـم اللـه بفقـد الولـد، فيصـبرون ويحتسـبون، يجزيهـم اللـه بالوقايـة بمـن فقـدوا مـن النـار، وفقـد الولـد يشـمل كذلـك الذكـور والإنـاث، لأنـه عـام يطلـق عـلى الذكـر والأنثـى، وعـلى المفـرد والجمـع.

وجـزاء الآبـاء والأمهـات واحتسـابهم وصبرهـم عـلى مـا يجـدون مـن ألم وحـزن عـلى فقـد أولادهـم، يـندرج كذلـك ضمـن المثوبـة الموعـودة للصابريـن عـلى المصائـب التـي تنتابهـم،

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.
2. مريم: 71.

فالمسلم تكفر خطاياه، وتغفر ذنوبه، بالصبر على مصيبته، ولذلك زحزح عن النار فلم تمسه، والله أعلم.

تذكير الفاقد بالتقوى والصبر:

أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المرأة التي كانت تبكي عند قَبرٍ بأمرين من لوازم المثوبة الموعودة للفاقد المحتسب، فقال صلى الله عليه وسلم، لها: (اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي) يقول الإمام العيني: أي لا تجزعي، فإن الجزع يحبط الأجر، (واصبري)، فإن الصبر يجزل الأجر، قال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[1]، وقال ابن بطال: أراد النبي، صلى الله عليه وسلم، أن لا تجتمع عليها مصيبتان؛ مصيبة فقد الولد، ومصيبة فقد الأجر الذي يبطله الجزع، فأمرها بالصبر الذي لا بدَّ للجازع من الرجوع إليه، بعد سقوط أجره، وقيل: كل مصيبة لم يذهب فرح ثوابها ألم حزنها فهي المصيبة الدائمة، والحزن الباقي، وقال الحسن: الحمد لله الذي أجرنا على ما لا بد لنا منه.

ومما يستفاد منه، جواز زيارة القبور، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفيه دلالة على تواضعه صلى الله عليه وسلم، كونه لم ينهرها، وفيه النهي عن البكاء بعد الموت، والموعظة للباكي بتقوى الله والصبر.[2]

الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى:

بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الحديث المثبت نصه في صدر هذه الحلقة أهمية التحلي بالصبر عند تلقي الخبر الصادم، ففيه قالت المْرَأَة التي كانت تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، لما حثها صلى الله عليه وسلم، على التقوى والصبر: (إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي)

جاء في عمدة القاري، أن قولها: (إليك) من أسماء الأفعال، ومعناها تنح عني، وأبعد، قالت للنبي، صلى الله عليه وسلم، هذا القول والحال أنها لم تعرفه، إذ لو عرفته لما خاطبته بهذا الخطاب، ولما عرفت أن الذي أمرها بالتقوى والصبر هو الرسول، صلى الله

1. الزمر: 10.
2. عمدة القاري: 8/ 35.

عليه وسلم، استشعرت خوفاً وهيبة في نفسها، فتصورت أنه مثل الملوك، له صاحب أو بواب يمنع الناس من الوصول إليه، فوجدت الأمر بخلاف ما تصورته، فَجَاءَتْ إلى بَابِهِ فلم تَجِدْ عليهَ بوَّابًا.[1]

ثم جاءت لاحقاً معتذرة عن ردها الفج لما أمرها بالتقوى والصبر، فقال لها: (إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ).

يقول العيني: إن أصل الصدم لغة الضرب في الشيء الصلب، ثم استعير لكل أمر مكروه، وحاصل المعنى أن الصبر الذي يكون عند الصدمة الأولى هو الذي يكون صبراً على الحقيقة، وأما السكون بعد فوات المصيبة ربما لا يكون صبراً، بل قد يكون سلواه كما يقع لكثير من أهل المصائب، بخلاف أول وقوع المصيبة، فإنه يصدم القلب بغتة، فلا يكون السكون عند ذلك، والرضا بالمقدور إلاَّ صبراً على الحقيقة، وقال الخطابي: المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه، ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك؛ وقال ابن بطال: أراد أن لا يجتمع عليها مصيبة الهلاك، وفقد الأجر.

وذكر العيني بعض ما يستفاد من هذا الحديث، فبين أن فيه ما كان عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التواضع والرفق بالجاهل، وترك مؤاخذة المصاب، وقبول اعتذاره، وفيه أن الجزع من المنهيات، لأمره صلى الله عليه وسلم، لها بالتقوى مقروناً بالصبر، وفيه الترغيب في احتمال الأذى عند بذل النصيحة، ونشر الموعظة.[2]

سائلين الله العلي القدير أن ييسر لنا سبل الصبر والاحتساب، وأن يجزي الصابرين والصابرات منا خير الجزاء، ونرجوه سبحانه أن ييسر متابعة الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في آيات التنزيل الكريم، وأحاديث الرسول الأسوة، محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. عمدة القاري: 8/ 68، بتصرف.
2. عمدة القاري: 8 /68.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات

الحلقة السادسة والأخيرة

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلْنَا مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلَام، فَأَخَذَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن ابن عَوْفٍ، رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟! فقال: يا ابن عَوْفٍ، إنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى تذكير فاقد أحد أبنائه بالتقوى والصبر، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، أمر المرأة التي كانت تبكي عند قَبر ابنها بهما، فقال: (اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي)[2]؛ أي لا تجزعي، فإن الجزع يحبط الأجر، واصبري، فإن الصبر يجزل الأجر، والصَّبْرُ يكون عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، فالصبر الذي يحمد عليه صاحبه، ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك.

مشروعية تقبيل الابن الطفل وشمه:

رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، أخذ ابنه إبراهيم، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ؛ أي وضع أنفه ووجهه على وجهه، كمن يشم رائحة، وهذا يدل على أن محبة الأطفال والترحم بهم سنة.[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون).
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.
3. مرقاة المفاتيح: 4/ 177.

وعـن أَبي هُرَيْـرَةَ، رضي الله عنـه، قـال: (قَبَّـلَ رسـول اللَّـهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، الْحَسَـنَ بـن عَـليٍّ وَعِنْـدَهُ الْأَقْـرَعُ بـن حَابِـسٍ التَّمِيمِـيُّ جَالِسًـا، فقـال الْأَقْـرَعُ: إِنَّ لي عَـشَرَةً مـن الْوَلَـدِ مـا قَبَّلْـتُ منهـم أَحَـدًا، فَنَظَـرَ إليـه رسـول اللَّـهِ، صـلى الله عليـه وسـلم، ثُـمَّ قـال: مـن لَا يَرْحَـمُ لَا يُرْحَـمُ).[1]

وعـن عَائِشَـةَ، رضي الله عنهـا، قالـت: (جـاء أَعْـرَابِيٌّ إلى النبـي، صـلى الله عليـه وسـلم، فقال: تُقَبِّلُـونَ الصِّبْيَـانَ؟! فـما نُقَبِّلُهُـمْ، فقـال النبـي، صـلى الله عليـه وسـلم: أَوَأَمْلِـكُ لَـكَ أَنْ نَـزَعَ اللَّـهُ مِـنْ قَلْبِـكَ الرَّحْمَـةَ؟!).[2]

المعنى الإجمالي للحديث:

لما ولـد إبراهيـم، دفعـه صـلى الله عليـه وسـلم، إلى أم بـردة، وزوجهـا أبـو سـيف البـراء بـن أوس، فكانـت ترضعـه، وكان رسـول اللـه، صـلى الله عليـه وسـلم، يأتيـه في بنـي النجـار، وقولـه: (وكان ظـئراً لإبراهيـم)؛ أي كان أبـو سـيف البـراء ظـئراً لإبراهيـم ابـن النبـي، صـلى الله عليـه وسـلم، والظـئر زوج المرضعـة، وتسـمى المرضعـة أيضـاً ظـئراً، وقولـه: (وإبراهيـم يجـود بنفسـه)؛ أي يخرجهـا ويدفعهـا، كـما يجـود الإنسـان بإخـراج مالـه، أي قـارب المـوت، وقولـه: (تذرفـان) مـن ذرفـت العـين تـذرف، بالكسر، إذا جـرى دمعهـا، قولـه: (وأنـت يـا رسـول اللـه؟!) معطـوف عـلى محـذوف تقديـره: النـاس لا يصـبرون عنـد المصائـب، وأنـت يـا رسـول اللـه تفعـل كفعلهـم؟! كأنـه تعجـب واسـتغرب ذلـك منـه، لمقاومتـه المصيبـة، ولعهـده أنـه يحـث عـلى الصـبر، وينهـى عـن الجـزع، فقـال: (يـا ابـن عـوف)، هـذا جـواب مـن رسـول اللـه، صـلى الله عليـه وسـلم، لعبـد الرحمـن بـن عـوف، فقـال: يـا ابـن عـوف، إنهـا رحمـة، أي إن الحالـة التـي شـاهدتها منـي هـي رقـة وشـفقة عـلى الولـد، وليسـت بجـزع كـما توهمـت أنـت.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
3. عمدة القاري: 8 /102 ، بتصرف.

الْعَيْنُ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبُ يَحْزَنُ:

يعبر الناس عن أحزانهم بطرق مختلفة، يشترك في كثير منها نزول الدمع العفوي من العين، والرسول، صلى الله عليه وسلم، دمعت عيناه لما مات ابنه إبراهيم، فدمع العين ينتاب من يصاب بحزن بالغ، ومن ذلك عند موت عزيز أو حبيب، وعبد الرحمن بن عوف لما رأى دمع الرسول، صلى الله عليه وسلم، استغرب، ظاناً أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يختلف عن غيره من الناس، كونه يحث على الصبر، ويحذر من الجزع، وهو القدوة الأسمى، فرد عليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بوضوح لا لبس فيه، مفاده أن دمع عينه وحزن قلبه طبيعيان، ما دام حدوثهما يقع في إطار الرضا بقضاء الله وقدره، والبعد عن التلفظ أو سلوك ما يغضب الله سبحانه، (ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[1]

وقوله: (لمحزونون) أي طبعاً وشرعاً، قال ابن بطال وغيره: هذا الحديث يفسر البكاء المباح، والحزن الجائز، وهو ما كان بدمع العين، ورقة القلب، من غير سخط لأمر الله.[2]

اللَّه لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، ولا بِحُزْنِ الْقَلْبِ:

مشروعية الحزن الفطري لفقد عزيز، ودمع العين لذلك، تعززها أحاديث صحيحة أخرى، كحديث عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قال: (اشْتَكَى سَعْدُ بن عُبَادَةَ شَكْوَى له، فَأَتَاهُ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَعُودُهُ مع عبد الرحمن بن عَوْفٍ، وَسَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، رضي الله عَنْهُمْ، فلما دخل عليه، فَوَجَدَهُ في غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فقال: قد قَضَى؟ قالوا: لَا يا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَكَوْا، فقال: ألا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، ولا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بهذا - وَأَشَارَ إلى لِسَانِهِ- أو يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون).
2. عون المعبود: 8 /276.

يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عليه، وكان عُمَرُ، رضي الله عنه، يَضْرِبُ فيه بِالْعَصَا، ويَرمي بِالْحِجَارَةِ، ويَحْثي بِالتُّرَابِ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد في حديثه هذا رفع الحرج والمؤاخذة الشرعية عمن ينتابه حزن فطري، ويتعرض لبكاء عين، بسبب فراق عزيز عليه، وهنا الحزن ليس على ولد فحسب، وإنما قد يكون على صاحب أيضاً، يقول ابن العربي: وهو تفضل منه سبحانه، حين علم عجز الخلق عن الصبر، فأذن لهم في الدمع والحزن، ولم يؤاخذهم به، وخطم الفم بالزمام عن سوء الكلام، فنهى عما نهى، وأمر بالتسليم، والرضا لنافذ القضاء، وخاصة عند الصدمة الأولى، وأحسن الكلام في الشكوى، سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.[2]

وبهذه الوقفة المعبرة نختم الحديث عن تبشير الأمهات الصابرات المحتسبات، في ضوء ما جاء في آيات التنزيل الكريم، وأحاديث الرسول الأسوة محمد، صلى الله وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.
2 يوسف: 86.

الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم يحذر من تحريش الشيطان

عن جَابِرٍ، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ).[1]

يحرص الإسلام على توطيد العلاقة بين المسلمين أفراداً وجماعات، وفي المقابل ينبههم إلى خطورة شقاقهم وتنازعهم، وفي إطار هذين المبدأين تتضافر الأدلة الشرعية في مساندة التوطيد، ونبذ التشرذم والصراع بين المسلمين.

تحريش الشيطان بين المسلمين:

حديث جابر المثبت نصه أعلاه، من أدلة التحذير من أسباب الشحناء، التي يقف كيد الشيطان وراء كثير منها، فيؤجج الصراعات، ويضخم الخلافات، ويؤلب النفوس، ويخرج بنتائج وخيمة مدمرة، قد تصل في مداها إلى قطع الرقاب، وسفك الدماء بين المتخاصمين، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يبين للمسلمين بأن الشيطان لا يطمع بتقربهم إليه بالعبادة، لإدراكه ويقينه باستبعاد نيله هذه الحظوة منهم، لكن ابتعادهم عن عبادة الشيطان لا يحول بينهم وبين أحابيله ودسائسه، فيلجأ بأساليب ووسائل شتى لتحريض بعضهم على بعض، وهذا هو المقصود من قوله عليه الصلاة والسلام: (وَلَكِنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)؛ أي يسعى بينهم بالخصومات، والشحناء، والحروب، والفتن، ونحوه.[2]

التنازع يجلب الفشل والوهن:

لما نهى الله المسلمين عن التنازع، علل هذا النهي بأن التنازع يؤدي إلى الفشل

1. صحيح مسلم، كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 17/ 156.

والوهـن، فقـال تعـالى: {وَأَطِيعُـواْ اللـهَ وَرَسُـولَهُ وَلاَ تَنَازَعُـواْ فَتَفْشَـلُواْ وَتَذْهَـبَ رِيحُكُـمْ وَاصْـبِرُواْ إِنَّ اللـهَ مَـعَ الصَّابِرِيـنَ}[1]، ولا يمكـن لعاقـل أن يشـكك في هـذا التعليـل، وبخاصـة أنـه معاضـد بشـواهد عـلى أرض الواقـع، وحـق لـذاك الحكيـم - المهلـب بـن أبي صفـرة- أن يحـذر أبنـاءه مـن الفرقـة، لمـا قـال لهـم:

كونُوا جميعَاً يا بَنِيَّ إذا اعترَى خَطْبٌ ولا تتفرقُوا آحادَا

تأبَى القِداحُ إذا اجتمعْنَ تكسُّراً وإذا افترقْنَ تكسَّرتْ أفرادَا

واللـه تعـالى حـذر المسـلمين مـن التفـرق بالتزامـن مـع أمرهـم بطاعتـه وطاعـة رسـوله، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وفي موضـع قـرآني آخـر نهاهـم سـبحانه عـن الفرقـة، بالتزامـن مـع أمرهـم بالاعتصـام بدينـه، فقـال عـز وجـل: {وَاعْتَصِمُـواْ بِحَبْـلِ اللـهِ جَمِيعـاً وَلاَ تَفَرَّقُـواْ وَاذْكُـرُواْ نِعْمَـتَ اللـهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُـمْ أَعْـدَاء فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـم بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانـاً وَكُنتُـمْ عَـلَىَ شَـفَا حُفْـرَةٍ مِّـنَ النَّـارِ فَأَنقَذَكُـم مِّنْهَـا كَذَلِـكَ يُبَـيِّنُ اللـهُ لَكُـمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ}[2]

وذكرهـم سـبحانه في هـذه الآيـة الكريمـة بفضلـه العظيـم عليهـم، لمـا ألـف بـين قلوبهـم، وأصبحـوا بهـذه النعمـة إخوانـاً متحابين.

إنما المؤمنون إخوة:

يسـعى الإسـلام بتوجيهاتـه وتشريعـه وقيمـه إلى إرسـاء مبـدأ الأخـوة بـين المسـلمين، الـذي نـص عليـه قـول اللـه في قرآنـه الكريـم بمنطـوق اللفـظ ومفهومـه، فقـال تعـالى: {إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَةٌ فَأَصْلِحُـوا بَـيْنَ أَخَوَيْكُـمْ وَاتَّقُـوا اللـهَ لَعَلَّكُـمْ تُرْحَمُـونَ}.[3]، ومبـدأ الأخـوة يقتـضي التفاعـل مـع معانيـه ومراميـه، فـلا يقبـل مـن الإخـوة تـرك المتخاصمـين منهـم دون تدخـل فاعـل لإنهـاء خصامهـم، فأمرهـم اللـه بالإصـلاح بـين إخوانهـم، وجـاء هـذا الأمـر في

1. الأنفال: 46.
2. آل عمران: 103.
3. الحجرات: 10.

سياق الأمر بالإصلاح بين المتقاتلين من المسلمين، والذي أُتبع بالأمر بقتال الفئة الباغية، فقال سبحانه: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[1]

ولأهمية الأخوة بين المسلمين، فقد مارس الرسول، صلى الله عليه وسلم، تطبيقها عملياً بينهم على أرض الواقع، فكان من أبرز أعماله الرئيسة بعد الهجرة، أن آخى بين المهاجرين والأنصار، ونتج عن ذلك بناء صرح المسلمين الذي به - بعون الله - تحققت الانتصارات للإسلام والمسلمين، وانتشر الإسلام في أرجاء المعمورة بتعاونهم وإيمانهم بدينهم، وإخلاصهم لله في حمل دعوته للعالمين، وانشغالهم بهذا العمل السامي، والترفع عن العمل الفئوي، أو التطلع لجني مكاسب نفعية شخصية من وراء عملهم الدعوي، فتقلصت خلافاتهم، وتعاظمت قواسمهم المشتركة.

المسلمون كالجسد الواحد:

من معززات ترسيخ جانب الحذر من تحريش الشيطان بين المسلمين، وتأليب بعضهم على بعض، توضيحه صلى الله عليه وسلم، لهم بأنهم في تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، فعن النُّعْمَان بن بَشِيرٍ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى له سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى).[2]

فما أروعه من تشبيه للعلاقة الأخوية بين المؤمنين، فهي تثمر تشاركاً في المشاعر، والأحاسيس، والاهتمامات، إذا شكا فرد منهم من ضائقة، أو واجهت جماعة منهم شدة، فإن ألم الشكوى يصل مجموعهم، وحق لسائل أن يسأل مستنكراً عن واقع ممارسة

1. الحجرات: 9.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ.

هـذه المعـاني بـين المسـلمين، إذ المشـاهد والملمـوس يتناقـض مـع جلهـا، والجـواب يجـب أن يتضمـن التنبيـه إلى موطـن الخلـل، حتـماً إنـه ليـس في الديـن ومبادئـه وأحكامـه، وتوجيهاتـه، وقيمـه، وإنمـا يتركـز في هشاشـة التديـن لـدى المسـلمين، الذيـن أخـذوا مـن الديـن قشـوراً، وتركـوا الجـذور، حتـى طـاب لبعضهـم أن يحمـل السـلاح ليقتـل بعضـاً مـن منافسـيه أو مخالفيه مـن أبنـاء دينـه، الذيـن يفـترض أن لهـم حقـاً عليـه في بـذل الجهـود لحمايتهـم، والـذود عنهـم، فهـي المأسـاة بعينهـا، والمصيبـة التـي ليـس لهـا عـزاء.

فهـذه وقفـة تذكيريـة تحذيريـة مـن تحريـش الشـيطان بـين المسـلمين، تضمنـت التذكـير ببعـض توجيهـات الإسـلام لهـم ليكونـوا صفـاً واحـداً، إخوانـاً متحابـين في اللـه، مـع التنبيـه لخطـر تنازعهـم، فهـو عظيـم، يجلـب الفشـل والهزائـم والوهـن، ويحقـق للمتربصـين بهـم غاياتهـم، إضافـة إلى تنفيـذ مخططاتهـم المشـبوهة والعدوانيـة ضدنـا شـيباً وشـباناً، نسـاء ورجـالاً، ويلبـي أطماعهـم في أرضنـا ومقدسـاتنا وخيراتنـا، أعاذنـا اللـه مـن تحريـش الشـيطان، وهدانـا لاتّبـاع القـرآن الكريـم، وهـدي خاتـم النبيـين، رسـولنا المصطفـى، صـلى اللـه وسـلم، وبـارك عليـه، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

الفهرس

	تقديم	
	الفصل الأول/ عقيدة الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم	
.1	وقوله: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ - الحلقة الأولى	6
.2	وقوله حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ - الحلقة الثانية	10
.3	وقوله حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ -الحلقة الثالثة والأخيرة	14
.4	وقوله: "الله مولانا ولا مولى لهم" - الحلقة الأولى	18
.5	وقوله: «الله مولانا ولا مولى لهم» - الحلقة الثانية	21
.6	وقوله: «الله مولانا ولا مولى لهم» - الحلقة الثالثة	25
.7	وقوله: «الله مولانا ولا مولى لهم - الحلقة الرابعة والأخيرة	29
	الفصل الثاني/عبادات الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم	
.1	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الأولى	34
.2	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الثانية	38
.3	أنزل الله عليه القرآن الكريم في شهر رمضان - الحلقة الثالثة والأخيرة	41
.4	يبشر من يصوم رمضان ويقومه بالغفران	45
.5	نصره الله بفتح مكة في رمضان فأكثر من تسبيح الله وحمده واستغفاره	49
.6	ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة - الحلقة الأولى	52
.7	ودعاؤه لمن يأتيه بصدقة - الحلقة الثانية والأخيرة	55
.8	يخبر عن مباهاة الله بأهل عرفة	59
.9	يشرع أعمالاً ونسكاً ليومي عرفة والنحر	63

الفصل الثالث / سيرة وشمائل الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الأولى	68
.2	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثانية	71
.3	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثالثة	74
.4	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الرابعة	77
.5	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الخامسة	80
.6	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة السادسة	83
.7	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة السابعة	86
.8	يضرب مثلاً للإخلاص بالهجرة - الحلقة الثامنة والأخيرة	89
.9	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الأولى	92
.10	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الثانية	95
.11	تمنى الشهادة في سبيل الله - الحلقة الثالثة والأخيرة	98
.12	يبايع النساء - الحلقة الأولى	102
.13	يبايع النساء - الحلقة الثانية والأخيرة	105
.14	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الأولى	108
.15	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الثانية	111
.16	يوصي بالنساء في خطبة الوداع - الحلقة الثالثة والأخيرة	114
الفصل الرابع / زهد ورقائق الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الأولى	119
.2	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الثانية	122
.3	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الثالثة	125
.4	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الرابعة	128

.5	يبين أموراً تفضل الدنيا وما عليها - الحلقة الخامسة والأخيرة	131
.6	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا - الحلقة الأولى	134
.7	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا - الحلقة الثانية	137
.8	لم يخش الفقر على المسلمين، ولكن خشي أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْهِمْ الدُّنْيَا الحلقة الثالثة والأخيرة	149
	الفصل الخامس / أخلاق وقيم الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم	
.1	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الأولى	142
.2	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الثانية	147
.3	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الثالثة	150
.4	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الرابعة	154
.5	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة الخامسة	158
.6	يبشر الأمهات الصابرات المحتسبات - الحلقة السادسة والأخيرة	161
.7	يحذر من تحريش الشيطان	165